فَتَاةُ القَانِيلْيَا

دينا السقا

رواية: فتاة القانيليا
المؤلف: دينا السقَّا
تدقيق وإخراج: دعاء السيد
تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف
رقم الإيداع : ٢٠١٩/١٥١٣٧
الترقيم الدولي: ٧-٨-٨٥٤٩٢-٩٧٧/٩٧٨
الطبعة الثانية: ٢٠١٩
رئيس مجلس الإدارة : أ.د. محمود محمد السعيد
المدير العام : هالة البشبيشي

بريد إلكتروني : info@alhalapublishing.com
تليفون : ٠١١١٠١٦١١١٧
العنوان : ٢٦ش ٢٦١ المعادي الجديدة

صفحة الفيسبوك : مركز الهالة الثقافي

https://www.facebook.com/alhalapublishing/

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍ من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

فَتَاةُ القَانِيلْيَا

دينا السقا

إهداء

إلى

أحمد مراد

عمرو حسين

إبراهيم أحمد عيسى

وإلى تلك التي رأت من الحياة ما رأت، وظلّت على كبريائها

تقاوم

"جبرا إبراهيم جبرا"

ثُلاثتهم مُتطلِّعون إلى الشاشة بلا حِراك، وكأن على رؤوسهم الطير.. فمنذ التنويه الذي أذاعته هي بنفسها، وحالهم غير الحال، هو يكاد يُجَن.. يقتله التوتر والترقب.. أي أمر ستعلنه تلك الحمقاء! ألم تكتفِ بعد؟

والأخرى بدت كمن أصابها مسٌّ من الجنون، وتشي عيناها بكراهية وحقد لا تخطئهما عين.. أما الأخير فلم يكن يعنيه الأمر في شيء.. فقط الفضول هو ما جذب انتباهه.

لحظات ثقيلة مرت علي ثلاثتهم.. امتلأت الغرفة بسحب الدخان.. حتى ظهرت هي أمامهم.. بابتسامة صافية متأنقة، ربما أكثر من المعتاد.. تطلَّع كبيرهم إليها بغير تصديق.. تلك المرة الأولى التي يراها هكذا.. وكأنها عروسٌ في ليلة عرسها.. ابتسامتها كانت خنجرًا طعن ثلاثتهم.. وبصوتٍ واثقٍ _وإن بدا لهم ساخرًا_ بدأت حلقتها:

- مساء الخير.. أنا عارفه إن اللي هاقوله دلوقتي ممكن يقضي على مستقبلي تمامًا.. بس أنا حابَّة أقوله.. مهما كانت العواقب.

تصمت قليلًا بعد أن استطاعت أن تشد انتباه الجميع.. حتى في أحلك الأوقات مازالت تتمتع بسحر يسلب الأذان قبل العيون.. ثم تابعت:

- كل إنسان بيغلط، بس فيه اللي بيغلط وهو قاصد، وفيه اللي ماقصدش يؤذي حد.. لكن أذى نفسه، وأنا منهم.. غلطت

وأذيت نفسي بدون قصد، ولأني عارفة إني ماعملتش حاجة.. أو ماكنتش قاصدة فعلًا؛ فأنا هاقول كل اللي حصل.. هاحكي كل حاجة، وهاسيب القرار والحكم ليكوا.

كان يستمع إليها بغير تصديق أو استيعاب، تلك اللعينة تقضي علي نفسها بيدها، لم تكترث بتهديده الخفي، توقع أن تثور.. ترتجف.. وأن تأتي إليه طالبة للرحمة، رسم سيناريوهات عدة، ولكنها فاجأته، تعلن الخبر الآن! ليلى.. تلك العنقاء.. تتابع في هدوء:

- أحيانًا بنتعمي عن حاجات معينة بنعملها بإيدينا ومنعرفش إن هييجي الوقت والسحر هينقلب على الساحر، وده اللي حصل معايا.. زمان سجلت فيديو.. ومعرفش ليه احتفظت بيه لحد النهاردة!! بس أنا باتهدد بيه دلوقتي لما هاجمت بعض الأشخاص في حلقة الأسبوع اللي فات.

أنا قررت أعرضه دلوقتي.. هاعرضه بالرغم إنه ممكن يدمر حياتي.. لا مش ممكن.. ده أكيد.

تصمت للحظات بينما هو يكاد ينفجر.. وتتابع هي:

- مصيري هيكون بين إيديكوا انتوا..

***

بخطى مسرعة دخلت ليلى إلى حجرة الماكيير، ومن ورائها ارتفع صوت يخبر الجميع بوصولها، وتحول الاستديو فجأة إلي خلية نحل، أسلمت وجهها له بثقة، وعقلها مشغول بأمورٍ عدة.. بالحلقة الأخيرة من هذا الموسم، ربما لأنها الأكثر إثارة وجدلًا، وبـ"نور" المختفية منذ الصباح!

وبينما تحاول الاتصال بها للمرة الخمسين؛ كان عبده الماكيير الخاص بها يضع اللمسات الأخيرة على وجهها، فهي عادة لا تستغرق أكثر من خمس دقائق، بضع ضربات فقط من الفرشاة على الوجنة المسحوبة، وقليل من طلاء الشفاه..وإذ بنور تجيب أخيرًا، وبصوتٍ غاضبٍ وإن تخلله قلق خفي.. بادرتها ليلى:

– إنتِ فين يا نور قلقتيني عليكي من الصبح؟ قافله تليفونك ليه؟ مش عارفة إن دي آخر وأهم حلقة؟

كان اضطراب الأخرى جليًّا، وإن حاولت امتصاص غضب ليلى:

– بالراحة طيب.. أنا في الطريق، كنت باخلص حاجة مهمة، متخافيش آدم هيعمل كل حاجة لحد ما اوصل، إهدي انتِ بس.

أغلقت ليلى الهاتف بعصبية، وتطلعت إلى وجهها في المرآة.. ليلى التي تجاوزت منتصف الثلاثينيات بقليل مازالت محتفظة ببشرة شابة في العشرينات، لا خطوط دقيقة، لا علامات سوداء أسفل العينين، لا شيء.. تهتم ببشرتها

اهتمامًا مضاعفًا، تعلم أنه بالطبع ليس جمالها هو ما أهَّلَها لتلك المنزلة، ولكنه أيضًا جزءٌ من سحرها الخاص.

جمعت بين الجمال والذكاء في معادلة يصعب تحقيقها، فمنذ دراستها في كلية الإعلام، كانت دومًا من المتميزين.. ممَّا أهَّلها أن تحظى بفرصة للعمل في تلك الجريدة بسهولة، غير أن ذلك لم يكن ليكفيها، فطموحها كان يفوق الجلوس خلف مكتب والاكتفاء بتحرير بعض المقالات.. فالشاشة الصغيرة هي حلمها.. فلم تترك بابًا إلا وطرقته، ولكن بلا جدوى.. أصابها اليأس عدة مرات، ولكن إرادتها كانت دومًا أقوى من أي إحباط، كانت تؤمن أنه في وقتٍ ما ستحصد نتيجة جهدها، إلا أنها لم تكن تدرك أن القدر يدَّخِر لها عطاياه دفعة واحدة، ففي إحدى تحقيقاتها في لندن وأثناء سيرها فيCovent gardens، الحي الذي يقع ضمن منطقة الويست إند في وسط العاصمة البريطانية لندن.. والذي يُحدُّه شوارع هاي هولبورن من الشمال وكينغزوي من الشرق وستراند من الجنوب وتشارينغ كروس من الغرب، والذي يشتهر أيضًا بالعديد من المسارح التي طالما قرأت عنها وأثارت شغفها الفني.. منها دار الأوبرا الملكية، ومسرح دروري لين، ويتوسط الحي سوق الزهور الذي يَعرض فيه في الهواء الطلق من يُسمون "فناني الشوارع" أعمالهم الفنية، مثل الموسيقيين والهواة والرسامين وغيرهم.. هناك..

حيث التقت به لأول مرة.. (خالد) ذلك الذي كان بمثابة نقطة التحول في حياتها منذ اللحظة الأولى.. التقت به مصادفةً، حيث كانت قد انتهت لتوّها من التحقيق الصحفي مع أحد رجال الأعمال الهاربين، ذلك الذي كان اختبارًا حقيقيًا لقدراتها ومهاراتها.. واستطاعت بشِقِّ الأنفس أن تحظى أخيرًا بهذا الموعد.

كانت تلك زيارتها الأولى لـ(لندن)، لكنها لم تكن الأخيرة.. نصحتها صديقة لها بالذهاب إلى الكوڤِنت جاردن؛ فلم تتردد.. قضت قرابة الساعتين في الـ(شوبينج) حتى استوقفها جمعٌ من الناس ملتفين في دائرة.. اقتربت منهم مدفوعة بفضولها وسؤالٌ يلحُّ عليها: حول أي شيء تجمَّع هؤلاء؟ اقتربت منهم فأفسح لها أحدهم مكانًا.. مجموعة من العازفين الهواة.. اندمج الجميع في الصياح والتصفيق تشجعيًا لهم.. اختلفت لغاتهم، وجمعتهم الموسيقى.. حتى توقف العزف تمامًا، وانفصل أحدهم عن فرقته وتقدم إلى منتصف الحلقة.. أمسك بكمانه.. وبدأ في العزف.. حلقت روحها هائمة.. أتلك الموسيقى حقًّا من الأرض؟! همس أحدهم في أذنها بإنجليزية ميَّزت فيها لكنة عربية:

– عارفة المزيكا دي إيه؟

تطلعت إليه صامتة.. فمنذ الوهلة الأولى خطف قلبها.. ببشرته المائلة للسمرة، وتلك الأعين الواسعة، والشعر الأسود الحريري.. لم تُجِب.. فتابع هو:

- دي مقطوعه من أشهر مقطوعات (شوبان) اسمها (الكمان اللَّيلِي)..

أجابته هي بالعربية:

- إنت مصري؟!

إتسعت عيناه في ذهول.. ثم قال:

- مصرية!! غريبة!! ملامحك أسباني.. إيطالي.. يوناني..

ابتسمت له مجاملة.. مد يده بالسلام وتابع:

- أنا خالد المرشدي.

بادلته السلام:

- وأنا "ليلى سالم".

بعد لحظات.. وجدا نفسَيهما سويًا في مقهى قريب.. انقضى الوقت بهما في أحاديثٍ لا تنقطع حتى هبوط الليل.. حدثها عن نفسه.. عن حياته وعمله كمدير لأحد البنوك في مصر.. عن اهتماماته.. كالرسم والموسيقى.. عن

أهله.. وأن له أخًا وحيدًا وتُوُفِّي أبواه تباعًا منذ أعوام.. يحكي وهي لا تقاطعه.. حتى انتهى.. فتنهدت متسائِلة:

– مدير بنك وعازف كمان.. غريبة!

ابتسم مخبرًا إيَّاها أن الكمان هو عشقه.. يقضي الليل بصحبته.. مسببًا إزعاجًا لمن حوله.. ضحكت عند جملته الأخيرة.. حدثته هي أيضًا عن نفسها وعن سبب مجيئها لندن.. وعَدَها بالمساعدة عند العودة إلى مصر.. وقبيل مغادرته.. همس لها:

– ليلى.. تعرفي إني هاغيَّر اسم المعزوفة دي.. هاسميها "كمان ليلَى"

ابتسمت له وانصرفت في طريقها.. تعددت لقاءاتهما.. كل يوم تشعر به أقرب، ساعدها بعلاقاته المتشعبة، وضعها على أول الطريق، و..

– مش هتغيَّري التسريحة دي بقى يا أستاذة؟

كان صوت مصفف الشعر هو ما انتزعها من أفكارها، هزت رأسها بالنفي، عجيبٌ أمر ذلك الرجل، يسألها نفس السؤال كل مرة، ولا يحظى بإجابة مختلفة أبدًا، فلم تكن من هواة التغيير، اختارت لنفسها "لوك" عرفها به الجميع، شعرها الأسود منسدل كما هو، مع قليلٍ من المساحيق فقط.

صوت آدم يأتي من بعيد، يخبرها أن الوقت المتبقي أقل من ٢٠ دقيقة، غادرت لارتداء ملابسها بعقلٍ نصف واع، حتى أنها عادت ثانية لتلقي بنظرة أخيرة على غير عادتها.. مضطربة بلا ريب، أحكمت إغلاق الجاكيت حول جسدها، وغادرت إلى الاستِديو، مبتلعة توترها بداخلها، تعلم أن حلقه اليوم ستفتح بابًا من الجحيم عليها، وربما اتخذه خصومها منبرًا للهجوم ولكنها لا تكترث، ترمي بالنقد وراء ظهرها طالما أدركت أنه نقد للنقد، وأصبحت قلَّما تلتفت لأي هجوم عليها، بل وتشعر إذا ما توقف الجميع عن نقدها أنها ما عادت مؤثرة، جلست جلستها الشهيرة في مواجهة الكاميرا، تلك التي تضع فيها ساقًا فوق الأخرى، وتزيح شعرها بأكمله على جانب وجهها، وتريح ظهرها قليلًا.. أحضر لها أحدهم كوب النعناع، لحظات وأقبلت نور مهرولة فرمقتها ليلى بنظرة غاضبة، فابتسمت لها مهدئة، فأشاحت هي بوجهها عنها، الضوء الأحمر ينير فوق الكاميرا، تتابعه ببصرها، علا صوت نور، ثري، تو، وان.. هوا

ابتسمت ليلى، وبدأت بتحية المشاهدين تحيتها المعهودة:

"أعزائي المشاهدين.. مساء الخير، للأسف النهاردة آخر حلقة في الموسم ده، فحبيت نختمه بحلقة مختلفة، النهارده..أنا هاعرض على حضراتكوا فيديو، أنا اللي صورته، مهما حاولت أوصف مشاعري وقتها؛ مستحيل أي كلام يقدر

يترجمها صح.. الفيديو من داخل عيادة من عيادات بير السلم للإجهاض، الفيديو ده بيعرض..

تصمت قليلًا.. ثم تتابع:

- تعالوا نشوف أحسن..

تستدير ليلى إلى الشاشة بينما يبدأ عرض الفيديو.. فتلتقط كوب النعناع بين يديها وتغوص بجسدها في الكرسي، وتتذكر الأمر برمته.

بدأ بجملة التقطتها من إحدى العاملات بالمحطة أثناء ثرثرتها مع زميلتها عن دكتور يسكن في حيٍ قريبٍ منهم، لا تتوقف العربات الفارهة والمعدمين عن التردد عليه على حد سواء، أثار الأمر فضولها، فالأمر في ظاهره يبدو تجارة أعضاء واضحة للعيان، وكعادتها لم تترك تلك المعلومة تفلت من بين يديها، تبادلت بضع كلمات مع تلك العاملة، عن تخصصه، فلم تفهم جيدًا منها.. سألتها عن طريق الوصول، شرحت لها بالتفصيل، خشيت ليلى إن ذهب أحد مُعِدّيها هناك أن يلفت الأنظار، فذهبت متخفية في زي امرأة منتقبة، لا تنسى أبدًا كيف استقلت ذلك الميكروباص ثم التوكتوك، حتى وصلت أخيرًا إلى وجهتها.. وما أن لامست قدماها الأرض حتى تيبَّست.. فإن كانت طوال الطريق ترسم سيناريوهات مختلفة.. إلا أن الأحلام شيء.. والواقع شيء آخر.. بدت كل خططها وسيناريوهاتها كالقصور في الهواء تمامًا.. ورغمًا عنها

ولتجنب نظرات فضولية أحاطت بها.. مشت مسرعة.. ومع كل خطوة تبدَّل خوفها أمنًا.. فالوضع غير ما تخيلته.

لفت انتباهها تلك السيدة المتشحة بالسواد الجالسة أرضًا وأمامها "سبت" مقلوب مغطى بقطعه من القماش المبلل، تراصَّت فوقه بعض الخضروات في نظامٍ بديع.. وتصيح بصوت منغم للإعلان عن بضاعتها.. ودَّت لو التقطت لها صورة.. تجاوزتها قليلًا إلى صاحب الكشك، ذلك الذي يجلس أمامه على كرسي خشبي، وحوله يلعب بعض الصغار بهدوء.. هدأت نفسها قليلًا واستكانت.. حاولت البحث عن العيادة فلم تفلح.. إلا أنها استجمعت شجاعتها عائدة إلى سيدة الخضار تلك.. مالت عليها وكأنها تنتقي بعض الجرجير متسائلة:

– بقولك يا حاجة.. ماتعرفيش عيادة دكتور محمود فين؟

تبدلت الطيبة في عين السيدة وتحولت إلى نظرة قاسية:

– آخر الشارع يمين في شمال.. ربنا يسترها علينا جميعًا.

لم تفهم ليلى ما سر تلك الدعوة!! غير أنها اشترت بعض الجرجير من أمامها بلا داع.

متتبعة وصف السيدة؛ وصلت إلى وجهتها أخيرًا.. هالها المنظر، لم تكن من أخبرتها تبالغ حين أخبرتها بشأن العيادة، وجدت ليلى العشرات من السيدات

والفتيات يحتللن كامل المدخل صعودًا إلى باب العيادة، تفجَّر تساؤل بداخلها، لم كلهن سيدات؟! لم تلمح سوى رجل واحد، منتظر في الأسفل في سيارته.. يبدو أنه في انتظار أحد أو ما شابه..

تلكأت ليلى في الصعود، انحشرت في وسطهن.. استرقت السمع جيدًا.. تبادلت معهن بعض كلمات فأدركت الآن مغزى دعوة بائعة الجرجير.. إنها عيادة "نساء وتوليد" وليست لتجارة الأعضاء كما تخيلت، يديرها طبيب موقوف عن العمل ومشطوب من نقابة الأطباء بعدما تسبب في وفاة إحدى مريضاته وإساءته لأخلاق وشرف المهنة، وبأنفاس لاهثة من فرط إثارتها وصلت إلى الباب، وشقَّت طريقها رأسًا إلى الممرضة الجالسة خلف مكتب متهالك مليء بالأوراق أخفى وجهها.. تنحنحت ليلى، فرفعت هي رأسها ناظرةً إليها.. ورمقتها بنظرة قسوة ممتزجة باحتقار أطلَّا من عينيها الضيقتين.. حاولت سبر أغوارها بأسئلتها الفجَّة....تطلعت إليها ليلى بلا حراك متفحصةً إياها.. بدت أقرب للسجانات منها إلى ملائكة الرحمة، بجسدها النحيل، وعروق يدها النافرة.. تحدثت مع ليلى بتعالٍ وعجرفة، ودَّت هي لحظتها لو نزعت نقابها علَّها تتأدب، غير أنها آثرت الصمت ودفعت ثمن الكشف، وانزوت في ركنٍ بعيد منتظرة دورها، متطلعه إلى العيادة في هدوء.. بقع دماء تلوث الحوائط، شاش ملقى على الأرض، يفتقر المكان لأدنى معايير النظافة،

فتيات يبكين في صمت، مطأطِئات الرؤوس مرتجفات، وأخريات يبدو عليهن أن تلك ليست مرتهن الأولى، التقطت من حقيبتها قلمًا صغيرًا، هو في حقيقة الأمر كاميرا صغيرة.. لا يثير الريبة أبدًا، وبضغطاتٍ متتالية _عليه كأنها تفرغ توترها_ استطاعت التقاط العديد من الصور خلسة، وفيديو قصير لا يتجاوز الدقيقة للمكان بأكمله..

فجأة، انفتح باب جانبي، خرجت منه فتاة محموله على محفَّة، فاقدة الوعي تمامًا ممتقعة الوجه، ظنَّت أنها ميتة، إذ كانت أمها تبكي بجوارها، عند تلك اللحظة لم تستطع ليلى الانتظار أكثر فغادرت مسرعة، وما أن ابتعدت عن ذلك المكان حتى استندت بيدها على الحائط، وتركت العنان لانفعالاتها الحبيسة، نزعت نقابها وألقته أرضًا وهي تبكي بهستيريا، عادت إلى منزلها مضطربة، وصورة تلك الفتاة لا تفارقها، حتى منعتها من النوم، فعقدت النية على عرض تلك القضية الشائكة في الحلقة المقبلة، إلا أن خالد لفت انتباهها إلى أن هذا الموضع سيجعلها عرضة للهجوم من بعض المؤسسات الدينية، وبعض مُدَّعين الشهرة، وربما تعرض برنامجها للإيقاف، ،ربما إيقافها هي شخصيًا..

انتبهت عندما انتهى عرض الفيديو، واعتدلت في جلستها، وبصوتها الهادئ بدأت تتساءل عن مصير تلك الفتيات، إذا ما فقدت إحداهن حياتها؛ من

المسئول؟ هل سيحاسب الطبيب إذا ما أزهق أرواحهم؟ ثم طرحت تساؤلًا آخرًا: متى يكون الإجهاض مباحاً؟ بعض الشيوخ يصرحون أنه جائز في حالات محددة، وقبل أن تُنفَخ الروح.. إذن متى تُنفخ الروح؟ كيف استطعنا تحديد الأمر بتلك الدقة؟ أنّى لنا أصلًا بالعلم!!

اقترحت أيضًا تقنين الإجهاض، فالعمليات لا تتوقف سواء شِئنا أم أبينا، ربما الآن أثناء الحلقة تُجري إحداهن عملية.. وربما تفقد حياتها، تسارعت أنفاسها من فرط انفعالها، فالتقطت نفسًا عميقًا وزفرته في بطء لعل توترها يهدأ قليلًا، وبدأت بقراءة بعض الرسائل، وكعادتها دومًا تبتسم إذا ما كانت إحدى الرسائل هجومًا عليها، وبدأت في استقبال المداخلات التليفونية، وأولها كانت مداخلة من ذلك المحامي الشهير، تكره ذلك المدعي الأفاق، لا يتورع أبدًا عن استغلال أي حدث من أجل الظهور الإعلامي، علا صوته وهو يتهمها بنشر الرذيلة، وأن ما تذيعه وتطالب به يقوض أركان المجتمع تمامًا، وغير منطقي، وبدلًا من مطالبتها بتقنين الإجهاض؛ الأحرى عمل حملات توعية للفتيات وتخويفهن من مغبة هذا الأمر، دار سجالٌ بينه وبين ليلى، كادت أن تفقد فيه أعصابها كثيرًا، حتى حسمت نور الأمر بفاصل، زفرت ليلى في ضيق، استقبلت رسالة من خالد فهدأتها كثيرًا:

"بهدوء، إنتِ مسيطرة جامد على الحلقة، بلاش تتعصبي"

وكأنه معها، كأنه شعر بها، فقد تبدلت من فورها وحلت البسمة بدلًا من العبوس.. "آه يا حبيبي، ومن غيرك يقدر على انتزاع تلك الابتسامه في عز الضيق"، صوتٌ في السماعة الداخليه يخبرها أن الشيخ "عبد الله" على الانتظار.. تتأفف ليلى.. تكره ذلك الشيخ، وإن لم تستطع الاعتراض، صوت نور يعلو: ثري، تو، وان.. هوا

تبتسم ليلى ثانية، وتقرأ بعض الرسائل الواردة:

"أنا بحبك يا أستاذة علشان انتِ جريئة"..

وآخر: "مش هنخلص بقى من أمثالك؟ خربتو البلد"

ابتسمت.. نور تخبرها أن الشيخ متذمر من الانتظار.. ابتسمت وأعلنت عن مداخلة من الشيخ الجليل..

– مساء الخير يا شيخنا..

– وعليكم السلام يا أستاذة، إيه اللي انتي بتعمليه ده؟!

اتَّهمها بأنها تدعو إلى الفسق والفجور، وكلما علا صوته؛ كلما ابتسمت ليلى، لا ترد بأي شيء، فقط تبتسم، تعلم أن الجميع يبحثون عن مجدٍ شخصيٍ لهم، فبمجرد مداخلتهم ستنطلق منصات السوشيال ميديا مقتطعة أجزاءً من الحوار، ولا مانع من تركيبها أيضًا، لذا فهي لا تتحدث أبدًا فقط إيماءات، حتى فرغ من هجومه عليها، فالتقطت هي الحديث مردفة بابتسامة مزيفة:

- أنا كان نفسي يا شيخنا نستمتع بالحديث مع حضرتك وقت أطول، بس للأسف وقتنا خلص من فترة..

اعتدلت في جلستها، وارتدت قناعًا من الجد وتابعت:

- "الموضوع أكبر من إنه يخلص في حلقة واحدة، أنا اتعرضت لهجوم هنا، وجايز على السوشيال ميديا يكون فيه حملات بدأت ضددي بالفعل، بس أنا مش خايفة ومش هاتراجع، أنا فتحت قضية وبدأت.. وأتمنى إن غيري يكمل.

أتمنى إن كل واحد فيكوا وكل واحدة يقولوا رأيهم بصراحة، ميخافش لو حد اتهمه إنه ضد التيار.. إنه بيفتح ملفات غريبة.. كل واحد فينا له دور، وانا هأدي دوري على أكمل وجه، ودوري إني أكشف المستور، وإذا كان الموسم ده خلص؛ فاستنوني في مواسم جاية، وحلقات أكتر، هتوحشوني، تصبحوا علي خير".

لوَّحت نور بيديها في إشاره تعني انتهاء البث، فتخلت ليلى عن الوجه الهادىء، وتركت انفعالاتها تطفو على وجهها، اقتربت منها نور في محاولة لتهدئتها، فارتفع صوت ليلى أكثر:

- يا نور أهدا إيه بس، ماسمعتيش الشيخ وهو عمال يكفرني، وعاوز يطبق عليا حد الحرابة!! أنا مفسدة في الأرض، ده اتجنن رسمي، وبعدين انتِ فين من الصبح؟ ده إيه اليوم الغريب ده!!

تهدَّج صوتها وهي تجيب:

- كان عندي موضوع لازم ينتهي النهارده.

وقبل أن تسألها عن مقصدها، أقبل الجميع تجاهها مهنئين، وعرض عليها أحدهم السهر بصحبتهم احتفالًا، غير أنها اعتذرت

ومالت على أذن نور هامسة:

- خالد مسافر بكرة، ويا دوب ألحق أحضَّر معاه الشنطة..

ابتسمت نور دون رد، وغادرت ليلى مسرعة وهي تتبعها بعينها حتى اختفت

***

علي الجانب الآخر، وفي تلك المحطة المنافسة كان "أشرف جميل" يجلس خلف مكتبه يدخن سيجارُه بشراهة، وشاشة التليفزيون تعرض برنامج ليلى، واللابتوب مفتوح على منصات السوشيال ميديا المختلفة.. يتابع ردود الأفعال المتباينة، منذ النظرة الأولى له تلمح عجرفة وغرور متأصلين بداخله، وكيف لا، وهو الملك الغير متوج على عرش الإعلام في البلد بأسرها،

صاحب الحصريات اللانهائية.. وأشهرها تلك التي مع رئيس الجمهورية، هو ذراع الحكومة الطولي، تبطش به بمن أرادت.. يكفي أن يظهر في برنامجه يتحدث عن أحدهم، حتى ينقلب الحال تمامًا..

إلى أن ظهرت ليلى، تلك الصغيرة التي زاحمته وبسرعة صاروخية، اعتلت القمة إلى جواره، بل كادت أن تزيحه، لولا أنه كالشجرة الراسخة في الأرض.. انحاز لها أغلب أطياف الشعب، تفضح المسكوت عنه، تهاجم بضراوة، تلقي الضوء على قضايا شائكة، لا يستطيع هو أن يقترب منها أبدًا، لا يستطيع أبدًا أن ينحدر_كما دأب علي الوصف دومًا_ إلى مستوى ليلى..

غموضٌ أحاط بها، حاول كثيرًا الإطاحة بها، غير أنها كانت صلبة، عنيدة، لا تهاب شيئًا، حتى دار بخلده يومًا أن أحد الكبار يساندها، فلا يعقل أن تبقى هكذا بلا رقيب أو سيطرة إلا إذا كانت تستند على حائط صلب، تطلع إلى مخرج البرنامج الخاص به "كريم" الجالس أمامه، يتابع ليلى هو الآخر بضيق.. يأمره وهو يشعل سيجارًا آخرًا:

– أنا عاوزك تجهزلي كل حاجه نقدر نرد بيها علي الهانم، دي بقت ترينـد!!

تنحنح كريم، وأشار إلى الأخرى المشتعلة بالفعل ولم ينتهِ منها، فقطَّب أشرف حاجبيه وزفر في ضيق، وأطفأ الاثنتين، فتابع كريم:

- طيب ما نتجاهلها أفضل
- إعمل اللي باقولك عليه من غير أسئلة، أنا مش هاتكلم عنها بشكل مباشر، مش تلميذ أنا يا كريم!!

أومأ كريم برأسه بعلامة الإيجاب.. فمن الأسلم تجنُّب غضب أشرف تمامًا في حالته تلك، في حين تساءل أشرف بلهجة تعمد أن تبدو عادية، وإن وَشَت عيناه بفضوله:

- ما تعرفش جددت ولا لسة؟
- معلوماتي إنها هتروح لقناة "عبد المجيد العطار"، نور كانت بتقوللي من يومين.

علامه استفهام ارتسمت علي وجه أشرف فتابع كريم:

- "نور البنا" المخرجة بتاعة ليلى.. إحنا أصحاب، وبنتكلم على فترات.

أومأ أشرف برأسه متفهمًا وتابع:

- طيب عاوزك بقى تعرف التفاصيل كلها.

اومأ كريم برأسه، وغادر، في حين بقي أشرف وحيدًا، يعيد تشغيل حلقة ليلى ثانية والفضول يلتهمه.

تقطن ليلى في مدينة الشيخ زايد، في كمبوند هادئ، أو كان هادئًا حتى وقتٍ قريب، إلى أن افتتحت به تلك الكافيهات، فافتقد خصوصيته الشهيرة، وأصبح صوت الشجار والسباب بين الشباب اعتياديًا، حتى أنها فكرت ذات مرة في مغادرته هربًا منه، برغم أنها ما انتلقت إليه إلا طلبًا للهدوء والراحة، فهي في الأساس من سكان المهندسين.

حتى اليوم، وبعد مرور أربع سنوات لم تنسَ أبدًا كيف طلبها للزواج، كانت تجلس معه في إحدى الكافيهات كعادتهم في الآونة الأخيرة، وعلى غير عادته بدا قلقًا، فسألته ما به، فانفرجت شفتاه عن كلمة واحدة: "تتجوزيني"؟

ابتسمت خجلًا دون رد، فالتقط كفها بين يديه، فأطالت النظر في عينيه، كانت تشعر أنها تغرق، ولم تكن ترتجي الفكاك، طبع قبلة في باطن كفها هامسًا:

- بحبك.

وبعد أشهرٍ قليله تم الزفاف، تحب خالد، وكذلك هو، تصفه دومًا، هدية القدر لها، برغم بعض هفواته وأخطائه التي تصيبها أحيانًا بالجنون، إلا أنها كانت دومًا من الذكاء بأن تتجاهلها وأن تغض الطرف عنها، يكفيها أنها زوجته، أنه يعود دومًا إلى أحضانها، هي من تظهر بجواره دومًا، حتى وإن انجرف في علاقة عابرة، يعود إليها نادمًا، يحسدها الجميع على برودها،

تعمدت بعض صديقاتها إبلاغها يومًا برؤيتها إياه مع فتاة أخرى، فابتسمت وتجاهلت الأمر، حتى أنها لم تخبره إلى الآن، من الذكاء أن تكون متغابيًا بعض الوقت، لن تعطي الفرصة لإحداهن بالشماته فيها أبدًا، تلك كانت نصيحة سمعتها من أمها ذات يوم لصديقةٍ لها، عندما أخبرتها بخيانة زوجها وعزمها الهجر والطلاق، فما كان من أمها إلا أن نصحتها بالتجاهل ومحاولة استمالته ثانية.

ليلى لا تعفي نفسها من الخطأ، أحيانًا ما تقصر في حقه، مواعيد وظروف عملها، لذا التجاهل هو الخيار الأسلم، وانتهى الأمر كما توقعت، فقد عاد إليها ثانية، تعلم أن نزواته لن تنتهي، هي طبيعته.. وتعلم أنه سيصادف غيرها ويلهو معها بعض الوقت، ويعود إليها ثانية.. وهكذا هو.. لا يعترف لها أبدًا.. إلا أنه كالطفل الصغير.. يلوذ بأحضان أمه إذا ما انجرف إلى الخطأ.

يحضر لها بلا مناسبة بوكيه ورد.. هدية غالية.. يدللها كثيرًا يبالغ في مدحها.. يريد التكفير عن ذنبه.. فلا تسمعه تقريعًا أبدًا.. على العكس تتظاهر بالفرحة لتلك الأشياء وتنسى أنها تكفيرًا عن خيانة سابقة.

"معقدة أنتِ يا ليلى" هكذا أخبرتها نور يومًا، عندما استفاضت ليلى في الحكي معها.. فمهما تظاهرت بالقوة واللامبالاة إلا أنها تحتاج أحيانًا إلى من يشاركها ولو قدرًا يسيرًا من وجعها الدفين.

ركنت سيارتها أسفل المنزل، وهي تدعو الله أن تجده مستيقظًا.. ما أن فتحت الباب حتى استقبلتها الموسيقى.. فسَرَت النشوة في جسدها.. صعدت إلى الأعلى بهدوء.. واستندت إلى الحائط.. وأغمضت عينها أسيرة لنشوتها.. إلا أنه توقف فجأة.. ودون أن يستدير إليها:

- حمد الله على السلامة.

- عرفت ازاي؟!

استدار لها مبتسمًا:

- بقى بعد كل السنين دي بتسألي! الفانيليا يا حبيبتي.

ضحكت.. وخلعت حذاءها وألقت بجسدها المنهك على الشيزلونج متطلعة إليه بأعين ناعسة..

- كنت فين طول اليوم يا خالد؟!

هز رأسه بلا مبالاة.. وجلس بجوارها:

- كنت باخلَّص حاجات علشان السفر.. ياريتِك تيجي معايا.

تنهدت في أسى:

- إنت عارف ورايا حاجات لسه مخلصتهاش.. إيه رأيك لما ترجع نسافر ل"لُبنى"؟

- فكرة هايلة.

شردت قليلًا، لبنى شقيقتها الوحيدة، هاجرت بلا عودة إلى فرنسا عقب وفاة أمهما، استقرت مع ابنها وزوجها.. وإن لم تنقطع المكالمات إلا أنها اشتاقت لها، لرائحتها، لحضنها، للمستها.. من قال أن المكالمات تكفي؟

- سرحتي في إيه يا حبيبتي؟

هزت رأسها نفيًا.. واعتدلت في جلستها:

- ولا حاجة.. يالَّا نجهز الشنطة.

نهضت وجذبته من يده إلى الداخل، فسار خلفها بهدوء، وما أن فتحت الباب حتى شهقت في ذهول، فقد كانت الغرفة بأكملها ممتلئة ببالونات الهيليوم، وتناثرت الورود في كل مكان بعشوائية محببة إلى النفس، نظرت إليه بدهشة، تحولت إلى ضحكات صارخة جنونية، وقفزت كطفلة صغيرة محتضنة إياه:

- إيه المفاجأة دي!!

- غمضي عينك طيب.

امتثلت له، فأخرج من جيبه علبة قطيفة زرقاء، طابعًا قبلة على خدها:

- افتحيها.

التقطتها من بين يديه متلهفةً لفتحها في حين تابع هو:

- عرفتي بقى كنت مختفي فين؟ كل سنة وانتِ حبيبتي.

نظرت إليه والفرحة تكاد تقفز من عينيها، عيد ميلادها.. كادت أن تنسى.. صحيح أنه بعد أيام، إلا أنه أصرَّ على إحضارها الآن قبيل سفره، فتحتها بلهفه، التقطت ما بداخلها.. سلسله ذهبية.. تطلعت إليها في ذهول.. لم ترَ لها مثيلًا من قبل.. التقطتها من علبتها ممعنةً النظر فيها.. حجر يبدو من العقيق الأسود المائل للحمرة ذو إطار ذهبي مرصع بفصوص الألماس.. ليس هذا هو المدهش، المدهش هو ما استقر فوق الحجر.. يدٌ ذهبية يمتد من إبهامها ثلاثة خيوط ذهبية رفيعة، اثنتين في نهايتها ورود صغيرة مزدانة بفصوص الألماس.. والأخيرة قلبٌ ذهبيٌ صغير.

- عجبتك؟

نظرت إليه مبهورة.. فكلمة "عجبتك" تبدو متواضعة أمام شعورها..

- عارفة يا ليلى اخترت ليه العقيق الأحمر تحديدًا؟

تطلعت إليه بلا رد فتابع هو ملتقطها من يدها:

- بيقولو الحجر ده بيزود السعادة.. والأهم إنه بيزود علاقة الحب.. وأنا ياروح قلبي لو اقدر اجيب كل عقيق الدنيا ليكِ علشان أضمن إني مافارقش قلبك أبدًا؛ هاعملها.. بس خدي بالك.. في

أسطورة بتقول وقت ما تلبسيها رابط الحب بيتكون وبيكبر كل يوم.. ووقت ما تقلعيها ولو لمرة واحدة؛ الرابطة دي بتتكسر!!

أولته ظهرها وأزاحت شعرها، فألبسها إياها.. أمسكتها بين يديها مقبلةً..

- عمري ما هاقلعها يا خالد.. أبدًا.

طبع قبلة هادئة على رقبتها متمتمًا:

- كل سنه واحنا سوا.

***

شق سكون الليل في ذلك الحي الهادئ صوت طرقات عنيفة على أحد الأبواب، الأم تبكي وتولول، يرتفع صوتها تارة بنحيب، وأخرى بسباب ووعيد، وفي الغرفة المغلقة وقفت فتاة تنظر لنفسها في المرآة، لا تكاد تظهر ملامح وجهها من بين دموعها وشعرها المشعث، تجيل النظر في غرفتها، تتحسس سريرها بيدها، تمسك بملابسها، تلتقط زجاجة عطرها فتفتحها وتستنشق عبيرها بقوة، وتعيدها مكانها ثانيةً، تلقي نظرة مودِّع على كل شيء، يعلو نحيبها، وصوت أمها هو الآخر لا يكاد يفهم من بين دموعها، وإن بدا فيه الضعف والتوسل جليًا:

- افتحي بقولك، كفايه فضايح يا هبة..

جلست هبة أرضًا خلف الباب، ووضعت رأسها بين يديها، وانهمر الدمع من عينيها يكويها:

- سامحيني يا أمي، مكنتش اقصد ان كل ده يحصل..
- طيب افتحي، علشان خاطري افتحي، كله هيتصلح، طيب خبيتي عليا ليه؟
- مكانش ينفع اقولك، سامحيني يا أمي، وادعي ربنا يسامحني..

بكاؤها لا ينقطع، فتحت هاتفها المغلق ونظرت إلى صورة أحدهم، أرسلت له برسالة:

"أنا كنت بحبك أوي، وكان نفسي نكمل مع بعض، ماتنسانيش بسهوله، أنا ماحبتش غيرك".

أرسلت الرساله، وارتفع صوت هاتفها هو الآخر في اتصالات متتالية، وصوت رسائل لا تنقطع، منعها الهاتف المغلق من الوصول في لحظتها فوصلت تباعًا، لم تكلف نفسها عناء القراءة، تعلم ما بها، أخرجت شريحتها كسرتها قطعًا صغيرة، فتحت النافذة فارتطم الهواء البارد بها، صعدت على السور، وألقت نظرة أخيرة على العالم كأنها تودعه..

صوت ارتطام جسدها بالأرض جذب انتباه المارة القليلين المتواجدين.. أسرع الجميع تجاهها، فحصها أحدهم آملًا أن تكون مازالت على قيد الحياة، على الرغم من بركة الدماء التي أحاطت بها..

– "لا حول ولا قوة إلا بالله، مش دي هبة؟"

عدم التصديق والذهول كانا سيدا الموقف..

أسرع احدهم لتغطيتها بورق من الجرائد ريثما يحضر أحدهم ملاءة، في حين انهمك آخر في طلب النجدة، وأسرع بعضهم إلى أعلى، حيث تقطن هبة.. أُضيئت الأنوار تباعًا في تلك العمارة، وخرج السكان مستفهمين، وعلامات الأسى مرتسمة على وجوههم، تناثرت الكلمات من أفواههم وانهمرت احداهن في بكاء، وصعدت إلى الأعلى، بدأت في طرق باب الشقة، بلا مجيب، فما كان منهم إلا أن كسروا الباب، ليفاجأوا بأمها وقد تمددت هي الأُخرى على الأرض.. الأمر أكثر من احتمالهم، الاثنتان في ليلة واحدة؟ مال أحدهم عليها، فوجد أثرًا لنبضٍ ضعيف، يشي ببقائها في عالم الأحياء، وبعد عده محاولات لإنعاشها، فتحت عينيها ببطء:

– هبة!!

انبعث الصوت خافتًا من بين شفتيها، لا يكاد يسمع، مالت جارتها عليها، والدمع يسبقها، احتضنتها برفق فارتفع صريخ الأم،كانت قد سمعت صوت

الارتطام، فسقطت من فورها، غير أنها كانت تتمنى لو كانت مخطئه، رمقتها الأعين بشفقة، وحاول أحدهم مواساتها:

- شدي حيلك يا مدام، ادعيلها بالرحمه

- رحمة إيه؟ دي ماتت كافرة.. مش انتحرت!! الله أعلم ليه بقى!!

التفت الجميع إليه مؤنبين، وأخرجه أحدهم من الشقه، فالأم المكلومة كان نحيبها يمزق أفئدتهم، في حين تابع الآخر:

- ماتشيليش هم، احنا هنجهز كل حاجة، الله يصبرك.

وانزوى في ركن بعيد يجري اتصالات، في حين كانت هي في عالم آخر.

***

عادت نور إلى المنزل في وقتٍ متأخر، أو تعمدت ذلك، وكل ما يشغل بالها هو الفراغ الذي ستحيا به عقب انتهاء البرنامج الآن، فإن كانت تعاني كل ليلة من الوحدة والألم عقب يوم حافل بالعمل الشاق، فكيف لها بأن تتحمل مكوثها وحيدة بلا شيء يشغلها بين جدران منزلها؟ اللهم إلا إن مَنَّ عليها أحد معارفها أو صديقاتها بالموافقة على الخروج معها، وإلا ستعيش وحيدة طوال تلك المدة، تجتر مأساتها، وتعيد فتح جراحٍ لم ينجح الوقت في شفائها، أخبرتها ليلى أن تعهد للزمن بالعلاج، وهو كفيل بمداواتها، ولكن كيف للزمن

أن يشفي جرحًا مازال ينزف كل ليله بالفعل؟ وضعت حقيبتها أرضًا، وتجولت في شقتها بلا هدف، تتطلع إلى الجدران الصامتة الباردة، وإن نافس قلبها برودتها، جَالَت بنظرها في المكان بأكمله.. انتقلت إليه مؤخرًا، بعد أن هجرت شقتها القديمة، مازال غير مُرتَّب كليًا، بعض الأشياء مازالت في صناديق مغلقة، فتحت باب غرفتها، فحمل إليها الهواء رائحة عطر مازال عالقًا به، وكأن القدر يرأف بحالها، فاحتفظ بعطره قليلًا.. أحبته وإن هجرها وأهانها، أحبته وإن أخبرها أنها ما كانت إلا نزوة في حياته.

تطلعت إلى وجهها في المرآة وهي تبدل ثيابها، فتاه في الثلاثين بروح عجوز في السبعين!!

بشره نضره بيضاء مشربة بحمرة خفيفة، تُخفي روحًا خربة وراءها، اقتربت أكثر من المرآة، تمعن النظر في وجهها، نفس الأعين الواسعة، والشعر الذهبي الطويل المنسدل، والجسد الممشوق، هي نور.. وليست نور أيضًا!! عامان تبدلت خلالهم، كل يوم تفقد جزءًا من روحها، حتى أضحت إنسانًا بلا روح، تحيا بين أطلال مأساتها، مأساتها هي الحب، لا.. لتكف عن وصم الحب بتلك الوصمة الكريهة..

مأساتها الحقيقية هي الاختيار، ولكن.. هل نختار حين نحب؟ هي لم تختَر قطعًا، فقط وجدت روحها تنجذب رغمًا عنها لـ "ياسر"، لم تمانع ولم تتمهل، تركت

نفسها تنجذب كليًا بلا هوادة أو تفكير، انغمست معه بكيانها، بالأحرى ذابت، كان ياسر زميلًا لها، أحبته بكل جوارحها، سيطر على تفكيرها تمامًا، فلم تنتبه إلى الاختلاف والتباين الرهيب بينهما، نصحتها ليلى بالتمهل، فهي لا ترتاح له، بالإضافه إلى كونهما من مجتمعَين مختلفَين تمامًا، ولن يلتقي الشرق بالغرب أبدًا، وليس بالحب فقط يستقيم الزواج.. الحب عامل، عامود ضمن عدة أعمدة، ولا يستقيم بناء على عامود واحد، لم تهتم نور، ولم تكترث، فقد شغفها حبه حتى أعماها.

قاطعت أهلها الذين رفضوه تمامًا، رأوه غير مناسب، لا يليق بها ولا بهم، ولكنها تزوجته رغمًا عن الجميع، نور خريجة الجامعة الأمريكية، وسليلة تلك العائلة العريقة.. تتزوج هكذا.. بلا حفل زفاف، وحيدة بعيدة عن أهله، تزوجت في غياب الجميع، لم تكترث لتوسلات أمها بالتراجع، لم يكن معها سوى ليلى وخالد، وصديق لـ "ياسر"، هم شهود العقد.. تنازلت عن كل شيء لأجله، حتى الشقة، سكن معها في شقتها التي ابتاعتها من ميراثها لأبيها، كانت ليلى حزينة لأجلها، ترى أن الأمر يبدأ بتنازل بسيط، ثم يمتد إلى سلسلة لا نهائية.. حتى يصير إلزامًا.. حاولت ردعها وإثنائها، غير أن تلك العنيدة، مدللة أبويها، لم تكترث سوى بياسر، ذلك الذي غدا إنسانًا آخرًا، لا تعرفه، تبدل.. أو تحول، أو بالأحرى سقط القناع، فلا أحد يتقن

التمثيل إلى الأبد، والأقنعة تتساقط مع الوقت شِئنا أم أبينا، الأمر كله مرهون بالوقت فقط، وقناعه سقط منذ الشهر الأول، أساء معاملتها كثيرًا بلا داع، حتى وصل الأمر إلى التطاول الجسدي، يتعمد التقليل منها بدون سبب، ينتقص منها، ومن أرائها، شعرت به يخنقها، ينهيها، وكأنها وردة آخذة في الذبول، حتى جاء يوم جفَّ نهر الحب المتدفق بداخلها، ونضب بئر التسامح، أخبرته بعزمها الطلاق، انهال عليها ضربًا وركلًا بلا وعي كمن فقد عقله، لجأت إلى ليلى، أقامت لديها بضع أيام، حررت ليلى محضر لزوجها مرفق به التقرير الطبي، خيَّرَته بين الطلاق أو الحبس، فلم يجد بُدًّا من تطليقها، وغادر حياتها، وترك فيها فجوة رهيبة، تركها أنثى جريحة فاقدة للثقة تمامًا فيمن حولها، حاولت الاحتماء من ضعفها بالرجوع إلى أهلها فلم يقبلوا بها ثانية، لم تنسَ لها أمها أبدًا أن وحيدتها حرمتها من لحظة انتظرتها كثيرًا.. قابلت عقوقها بقسوة أكبر.

وبرغم محاولات ليلى إصلاح ذات بينهم، إلا أنهم رفضوا، وبدأ الأمر بمعايرتها بسوء اختياراتها، وكانت هي في أوج الضعف، فآثرت الانعزال، وضعت كامل تركيزها في عملها، كانت تبذل جهدًا مضاعفًا، وإن لم يكن حتى من اختصاصها، تتطوع لإنهاء أي عمل بكل حب وأريحية، العمل هو فقط ما

يشعرها أنها على قيد الحياة، حاول الكثيرون التقرب منها، غير أنها لم تسمح لأحدهم ولو بمجرد التفكير في الاقتراب منها، كرهت الرجال ونفرت منهم.
ألقت نظرة أخيرة على وجهها في المرآة، وجهها الذي مهما غلَّفته الابتسامة، يظل القلب مثخن بالجراح، وتلك الابتسامة ما هي الا ستار، ألقت بجسدها المرهق على السرير، وغطت من فورها في نوم عميق.

***

استيقظت ليلي باكرًا، وأعدَّت الإفطار لخالد، ومعه ذلك العصير الغريب الذي يحبه.. مزيجٌ من الخوخ والفراولة والعنب الأحمر، مع ملعقة من العسل، وأضافت إليه هي الفانيليا.. أسماه مشروب الحب والسعادة، أخبرها أنه سر من أسرار منزلهم متوارثٌ فيما بينهم، وأن ساحرًا في عصرٍ ما أخبر أحد أجداده بالأمر ما أن يشربه أحدهم حتى تتدفق السعادة في عروقه وتحل به طاقة إيجابية، وبينما يرتشف من العصير باستمتاع، أخبرته ليلى أنها على الأرجح ستجتمع مع مالك القناة الجديدة بعد يومين أو ثلاثه.. فتساءل متعجبًا:

– أنا مش مرتاح.. بس انتِ حرة، انتِ بقالك في دي سنين، هتسيبها علشان الفلوس؟!

- دا شغل يا خالد.. تفتكر اطلب كام؟
- اطلبي ٢٠ يا ليلو..
- خالد، لو قولت ليلو دي تاني..

قاطعها ضاحكًا:

- هتوحشيني.. هاتابعك كل شوية..
- مش هالحق أوحشك.. ده أقل من أسبوع!
- والله بتوحشيني وانتِ جنبي.. انتِ ماتعرفيش غلاوتك يا ليلى.. أنتِ فتاتي.

تحسست وجهه بيدها وصولًا إلى شفتيه.. فعض إصبعها، فسحبتها صارخة في دلال:

- كده يا خالد!! يلا امشي.. وماتنساش البارفان بتاعي.
- أكيد مش ناسي..

احتضنها بقوة.. ذابت بداخله.. طبع قبلة على شفتيها، همَّ بالرحيل.. فاستوقفته هي:

- خالد.. أنا بحبك.

لوَّح لها بيده مودعًا، حيث كان السائق في انتظاره.

هناك.. أمام القبر المفتوح وقفت الأم المكلومة وقد تحجَّر الدمع في مقلتيها، وبجوارها بعض الأشخاص لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، بدت شاردة، وكأنها في وادٍ غير الوادي، وأصوات من حولها تتمتم بعبارات:
"ادعيلها بالرحمة" "ربنا يرحمها ويغفر لها" "شدي حيلك"..
تنظر إلى الجسد المحمول من النعش، فيصرخ قلبها.. قطعة منها تغاردها إلى الأبد.. تتابع بنظرها اثنين يتحركون به إلى أسفل، فيتمزق فؤادها، وتنهمر دموعها أنهارًا، استندت على كتف جارتها، تلك التي اعتبرت هبة ابنتها، وعندما صعد من نزلوا القبر منذ قليل إلى أعلى بدون جسدها، وغطوا القبر بالحجر، وأهالوا التراب عليه، وأمسك أحدهم بالماء، وبدأ ينثره ليخمد ذرات التراب المتصاعدة، هنا.. هنا فقط خارت قواها تمامًا بدت وكأنها استفاقت لتوِّها، فشرعت في الصراخ والعويل، واحتضنتها جارتها مُهدِّئه، فلم تستجب، فكيف تهدأ وروحها ترقد أسفل التراب.. وحيدتها.. ابنة عمرها بأسره، جلست أرضًا، وأهالت التراب على رأسها، وشريط حياتها يمرق أمامها.. منذ ولادتها هبة.. وفاة والدها وهي لم تتجاوز العامين.. ورفضها الزواج ثانية لأجلها.. لحظات تفوقها.. دخولها الجامعة.. أول وظيفة.. حلمها أن تراها عروسًا بالفستان الأبيض.. ها هي بيدها تلبسها الكفن وتشيعها إلى قبرها..

صرخت في قوة.. فمنعتها جارتها من التكرار، واحتضنتها، وعلا نحيبهما، والأم تردد:

- ليه عملتي كده يا بنتي.. ردي عليا.. ليه؟! ربنا ينتقم من اللي كان السبب.. يارب.

لم تكن تعلم أن ذلك الآخر، ذلك المكلوم، من عشق ابنتها وتسبب في موتها، يقف على بعد أمتار منها.. ينتحب في صمت.

***

مضت أيام ليلى عادية.. بالأحرى بطيئة.. كعادتها دومًا، إذا ما انتهى العمل تظن أنها ستحظى بالراحة، غير أن ما تحظى به فقط هو الملل، فتحاول تمضية الوقت في القراءة، في الجيم، الشوبينج، إلى آخره، غير أن كل هذا لا يملأ فراغ حياتها أو قلبها، فهي تحب عملها للدرجة التي تفتقده فيها.. تمامًا كحبيبة تحن إلى من هجرها، لا جديد في يومها أبدًا سوي بضع رسائل تبادلتها مع خالد وفيديو وهو يلقي بكلمته أمام الجميع.. شعرت بالفخر، فكل إنجازٍ له تعتبره لها، وكيف لا وهو قطعة من روحها.

بعد يومين استقبلت منه مكالمة يخبرها بعودته غدًا، فقد أنهى عمله ولا داع للمكوث بمفرده، تعجبت ليلى كثيرًا، هي تعلم أن خالد يحب لندن، غير أنها توقعت أنه يريد الاحتفال معها هنا بعيد ميلادها.. ابتسمت لهذا الخاطر.

حاوَلَت جمع ما تستطيع من معلومات عن هذا الذي ستلتقيه غدًا.. تعلم الكثير عنه بالطبع، فقد صارَ من نجوم المجتمع بين عشيةٍ وضحاها، لا تعلم أين كان منذ سنتين أو يزيد!! كل ما تعلمه أنه فجأة أصبح من كبار رجال الأعمال، ولكنها بحاجه إلى المزيد، تؤمن أن دراسة الشخصية جيدًا هي ما تحدد سير الحديث واللقاء ككل.. على ضوئها ستفهم كيف تتحدث، وبأي لغة أو طريقة، ماذا سترتدي.. بعد قرابة الساعتين من البحث.. لم يخيب هو فيها ظنها أو تقييمها، بدا نموذجًا حي للـ **nouveaux riche** ، وإن أشعرها هذا بالتوتر، فتلك الفئة من مُحدِثي كل شيء، تكره معاملاتهم.. تكره البقاء بجوارهم أو الاحتكاك بهم من الأساس.. فكيف بالعمل معهم!! قفزت إلى مخيلتها صورًا للكثيرين من تلك الفئة.. هذا محدث سلطة يظن أنه يمتلك مقاليد الأمور، والآخر مُحدِث ثروة يعتقد أن بإمكانه شراء الجميع، ياإلهي.. ودَّت لو تراجعت أو اعتذرت، لم يكن الأمر بتلك السهولة.. قطع تفكيرها طرقات منتظمة على الباب.. فنزلت إلى أسفل بتردد، فقد تجاوزت الساعة العاشرة مساءً، ألقت نظرة من خلف الباب، كانت نور.. فتحت لها الباب..

منذ الوهلة الأولى أدركت أنها ليست بخير، صعدت معها إلى الأعلى وتفحصتها في صمت، ترك السهر الطويل آثاره عليها، أمسكت بيدها متسائلة:

- مالك يا نور؟!

- مفيش.. متضايقة، العادي يعني.

نظرت إليها ليلى دون رد، تعلم أن نور تعاني.. وللأسف لا تملك ما تهون به عليها، انقضى الليل في أحاديث عن الغد، وتطرق إلى أشرف، وعن شائعة ارتباطه بتلك الفتاة..

- بس يا ليلى دي إشاعة، بقى أشرف هيسيب إنچي هانم ويروح لواحدة زي دي!!

نظرت إليها ليلى صامتة، هي متأكدة أن علاقة أشرف بتلك الفتاة جدية، فإنچي تلك لا تطاق بمعنى الكلمة، التقتها ليلى مرتان فقط في مناسبات رسمية، امرأة متَصَنِّعة، سخيفة مملة، أو كما أباحت لخالد لاحقًا: "دي بتتكلم بالشوكة والسكينة" تدرك أن الرجل لا يحتاج لنوع إنچي في حياته، تلك التي لا تهتم سوى بجلسات النميمة، الرجل يحتاج لأنثى، لامرأة حقيقية، تلك التي تشعره بحبها واحتياجها له، لذا تظن أن ما بينه وبين تلك الفتاة كان حقيقيًا، إلا أنه خشي من الفضيحة كما يقال، فآثر الابتعاد عنها..

- سرحتي في إيه؟

هزت رأسها بالنفي ونهضت متثاقلة:

- ولا حاجة، يلَّا ننام.. بكرة يوم مهم.

مر اليوم التالي بطيئًا على ليلى، كما لو أنه يتعمد البُطء، تستجدي عقارب الساعة أن تمر، متلهفه لإنهاء التعاقد، وأيضًا لرجوع خالد، ولكن كقاعدة أساسية في الكون كله، ما أن تتعجل مرور الوقت حتى يصاب بالشلل..

وجود نور ساعد في تحسين الأوضاع قليلًا والتخفيف من وطأة الانتظار..

عقدت النية عقب عودتها.. علي تحضير كيكة الليمون، تلك التي يعشقها خالد..

ما بين ثرثرة نسائية.. ومشاهدة بعض البرامج.. تجاوزت ساعات الانتظار.. حتى وجدت نفسها أخيرًا في ذلك الفندق الكائن أمام النيل، ركنت سيارتها في الجراج الملحق، واستلقت المصعد إلى الطابق الثالث، حيث كان عبد المجيد منتظرًا في ذلك المطعم الإيطالي الشهير..

تذكر أنها كانت هنا يومًا، وبرغم اختلافه قليلًا؛ إلا أن الجدران المكسوة بالخشب، والورود المتناثرة ورائحة الفانيليا ظلت هي عنوانه الذي لم يتغير..

وبتأثير الرائحة النافذة إلى خلايا مخها مباشرة، والموسيقى التي تملأ الأجواء.. هدأت قليلًا، استقبلهما بحفاوة وتقدير بالغين، فاسترخت في جلستها قليلًا

متفحصة إياه بهدوء، وبرغم أنها قتلت ليلتها أمس بحثًا عنه والعيش بصحبته طويلًا.. إلا أن رؤي العين مختلفة تمامًا..

فلم تفلح تلك الكرافت "السينيه" والبدلة الأنيقة، وعطره الديور سوفاج الذي غمر المكان، في تغيير حقيقته أو كينونته أبدًا..

من قال أن الملابس تغير شيئًا.. الملابس والعطور والسيارات.. إلى آخر تلك المظاهر الخادعة لا تبدل جوهر أو أصل الإنسان، فمع أول كلمة تتفوه بها.. أول حركة ولو بسيطة؛ تظهر روحك ونفسك جلية للأعين والقلوب، تمامًا كلوحات ڤان جوخ، مهما حاول الكثيرون تقليدها، وإن أتقنوا التقليد بشكل محترف.. تظل لوحاته الأصلية لها مذاقٌ خاص.. فالأشياء الأصيلة تأسر القلوب قبل العيون.

كان برفقته أحدهم، ربما المحامي.. لا تعلم بعد.. ولم يقدمه هو إلى الآن، بعد تجاوز التحية التقليدية، والأسئلة العامة، والإشاده بليلى وبرنامجها؛ اعتدل عبد المجيد وأشعل سيجاره، نفث دخانه بهدوء.. وركز عينيه على ليلى مباشرة:

- ندخل بقى في الموضوع، أنا يا أستاذة عاوزك معايا، وطلباتك أوامر، انتِ عارفة اني باعمل قناة جديدة، وهتبقي انتِ البريمو فيها..

لم تستسغ أبدًا طريقته في الكلام، يعاملها كما لو أنها صفقة، كانت تتوقع مثل هذا الأمر.. ولكن أن تتوقع شيء، وأن تُصدم.. شيءٌ آخر، لم تتخيل نفسها كسِلعة يثمنها، اعتدلت ونظرت تجاهه وقد قررت أن تلعب بأسلوبه:

– تمام.. بس انت أكيد عارف انا باخد كام..

بعد حديث مطول وشد وجذب بين كليهما، ساد الصمت قليلًا.. ونور تتطلع إلى ليلى بانبهار.. متعجبة من قدرتها على المساومة بتلك الطريقة.. وتعجبت من أن ليلى لم تتطرق معها لمثل تلك الأمور.. ولكنها آثرت الصمت.. فارتفاع عقد ليلى هو مكسب لها هي الأخرى، مال عبد المجيد على الشخص الذي بجواره وتبادلا حديثًا هامسًا سويًّا _علمت ليلى فيما بعد أنه مدير أعماله_ نظرت نور لها مبتسمة، تعلم أن تلك المشاورات تعني الموافقة، بادلتها ليلى الابتسامة عندما ارتفع هاتفها بالصوت المميز للرسالة، فالتقطته في لهفة، كانت من خالد..

– "طمنيني، وصلتي لفين؟"

أرسلت له بالرد..

– "بص انا طلبت ١٥ وعارفة انه مش هيوافق.."

– "هيوافق يا ليلو"

– "هاكلمك أول ما ننزل"

شبح ابتسامه زيَّن شفتيها، فوضعت الهاتف جانبًا، واعتدلت متطلعة إلى عبد المجيد، ترتشف قهوتها في هدوءٍ شديد، دون أي رد فعل آخر، وإن كان هناك بركانٌ يثور بداخلها، في اللحظة التي تطلع هو إليها:

- بصي يا أستاذة، اللي حضرتك طالباه ده، انتي تستحقي أضعافه، بس سامحيني، مش لسه فيه باقي الفريق، والديكور و..

وضعت الفنجان من يدها وقاطعته بنبرة حازمة:

- حضرتك بتتعامل مع ليلى سالم، يعني إعلانات القناة لوحدها هتغطي عقدي كذا مرة، وعمومًا خُد وقتك وفكر، احنا لسه معانا وقت، بعد إذنك..

نهضت من مكانها، وأشارت لنور أن تتبعها، فاستوقفهم عبد المجيد بإشارة من يده:

- طيب بس اقعدي يا أستاذه، الكلام أخد وعطا، اقعدي بقى، ما تقولي حاجة يا آنسة..

ابتسمت نور عندما وصفها بالآنسه، نظرت إلى ليلى، في حين تابع عبد المجيد:

- طيب ١٠ كويس، والموسم الجاي نزود، قولتي إيه، احنا كده مسكنا العصاية من النص، اقعدي بقي يا أستاذة.. مايصحش كده!!

جلست ليلى، وتطلعت لنور بهدوء، والتي أومأت لها برأسها في إشارة تعني الموافقه، فأومأت ليلى برأسها لعبد المجيد وتابعت:

- ١١ مليون.. وده آخر كلام عندي، والعقد هيبقى موسم واحد.

- يا أستاذة ده العشم، والجايات كتير، هنروح من بعض فين..

ابتسمت ليلى لنور، في حين أخبرها الآخر أن المحامي سيتصل بها حال اكتمال العقود، أخبرته أنها أيضًا بحاجة للعقود لعرضها على المحامي الخاص بها، غادرت بعد إلحاح من عبد المجيد بتناول الغداء سويًا، اعتذرت منه، مؤجلةً الأمر إلى بعد إمضاء العقود، غادرت مع نور إلى الباركينج، لم تستطع نور أن تكبح جماح انفعالاتها أكثر من هذا:

- بتهزري؟! إيه الأرقام دي، أنا تنحت من الثقة اللي بتتكلمي بيها!!

- دي فرصة، ولازم استغلها.. استني أكلم خالد أحكيله..

جلست خلف عجله القيادة، التقطت الهاتف، واستقبلتها عبارة "مغلق أو غير متاح"..

- شكله ركب الطيارة خلاص.

وضعت الهاتف بجانبها متطلعةً إلى نور، التي بدت شاردة:

- مالك يا كئيبة؟

- مفيش، بس كان نفسي يبقى عندي حد مهتم يتابع نجاحي زيك، فاكرة ياسر؟ لو خبر زي ده كان زمان يومي هيبقى أسود النهاردة.

- انتي ربنا بيحبك عشان خلَّصك من واحد زي ده أصلًا، ده عمره ما حَبِّك، لو كان بيحبك؛ كان هيبقى فرحان مع كل خطوة بتعمليها، هو اللي هيشجعك، مش هيغير منك ويحاول يطفيكي ويدفنك حية، يا نور الحب اللي مايديناش دَفعَة لقدام؛ مايبقاش حب.

- أنا باقول تسيبك من البرنامج ده، واعملي برنامج عاطفي، هتكسري الدنيا..

ضحكت لدعابتها، وفي الطريق سألتها عن سبب مغادرتها منزلها، إلى ذلك المنزل الجديد..

- مش عارفه يا ليلى.. بس يمكن حسيت بحنين للمكان ده، أو يمكن ضعيفة أوي ومحتاجة حاجة تقويني.. انتِ عارفة اني اتولدت

وعشت في الدقي أصلًا، يمكن ذكرياتي تكون سندي دلوقتي.. يمكن عاوزة أبعد عن أي حاجة بتفكرني بياسر، صحيح عدى وقت طويل، بس انا لسه ماخَفِّتش، لسه قلبي بيتنفض لو عديت من مكان دخلناه سوا، محتاجه أبعد..

تسمعها ليلى صامتة، تسترسل الأخرى بلا توقف، مازالت جريحة، تشعر حيالها بالعجز، لا تملك ما يخفف عنها.. غلَّفهم الصمت حتى وصلت نور إلى منزلها..

وعرَّجت ليلى في طريقها إلى السوبر ماركت، وإلى محل لانچيريهات، ابتاعت "قميص نوم جديد" ثم إلى الكوافير، كانت تشعر بحالها عروس في انتظار حبيبها، عادت إلى منزلها مسرعة، أوشك الوقت أن ينقضي، بدأت في إعداد كعكة الليمون وهي تشعر بسعادة لا تُوصف، ليس هناك أجمل من إعداد شيء لمن يهواه قلبك، تشعر أنها تسكب جزءًا من روحها مع كل خفقة، وضعت حبها في تلك الكعكة.

تتخيل سعادته عند عودته، وضعتها في الفرن، وبدأت في إعداد صوص الليمون عندما ارتفع صوت الرسائل الإخبارية على هاتفها، لم تعيرها اهتمامًا، إلا أن صوت تطبيق "بي بي سي" هو ما لفت انتباهها، يبدو أن هناك حادثًا

جللًا.. التقطت الهاتف، وما أن قرأت ما به، حتى سقط الهاتف من يدها أرضًا، وهي وراءه..

***

رائحه الموت تغلف المكان، وصمتٌ لا يقطعه إلا آيات من القرآن الكريم، وبعض ممن يتحركون بصواني تراصت عليها فناجين القهوة وزجاجات المياه، أحاديث خافتة تدور بين رجلين في ركن قصي، وأحدهم يشير إلى امرأة زائغة البصر تجلس بعيدًا، ورفيقه يهز رأسه في أسى..

وما أن سمع الجميع "صدق الله العظيم" حتى نهضوا مرة واحدة كما لو أنهم يؤدون واجبًا ثقيلًا، ومعهم كل الحق.. فمن منا يحب العزاء والحزن!!

اجتاز أشرف الصفوف رأسًا إلى ليلى، التي أصرَّت أن تتلقى العزاء في خالد جنبًا إلى جنب بجوار أخيه، وبدت وهي مستندة على يد نور؛ وكأن العمر قفز بها عشرين عامًا مرة واحدة.. وبرغم محاولتها للتماسك، إلا أنه عندما اقترب منها وشد على يدها خذلتها ساقاها مرة واحدة فانهارت باكية.. فربت على كتفها مهدئًا..

قدَّم إليها واجب العزاء والحزن يكسو وجهه، وكانت تلك من المرات القليلة التي تجرد فيها أشرف من غطرسته وعادت إليه إنسانيته، الموتُ حقًّا هو أكبر

واعظ ومنبِّه، فخالد كان مثالًا للشاب الناجح الطموح، امتلك مفاتيح السعادة بين يديه، غير أن كل أحلامه تحطمت مع تحطم طائرته..

- شدي حيلك يا ليلى.

تطلعت إليه بعينٍ خاوية، فاقدةً الرغبة حتى في الرد.. فقط أومأت برأسها.. ساد صمتٌ ثقيل إلى أن قطعه هو متسائلًا:

- مالقيتيش الجثة؟ مفيش أي أخبار؟!

حركت رأسها بالنفي، فتطوعت نور بالرد:

- أسبوع لحد دلوقتي، وفي جثث لقوها، وجثث مفقودة.. واحنا مستنيين أي أخبار.. بس انت عارف في البحر صعب تلاقي حاجة بعد أسبوع.

أسى حقيقي ارتسم على وجهه، في حين ارتفع نحيب ليلى عاليًا، فحاول تهدئتها:

- إهدي يا ليلى، ربنا يرحمه يارب، لو احتجتي أي حاجة كلميني، وانا هاتابع الموضوع، ولو وصلت لأي حاجة هابلغك، متشيليش هم.

وغادر مسرعًا وكأنه ما عاد يحتمل المكوث أكثر، واحتضنتها نور، فاستكانت بين ذراعيها، وانهمر الدمع من عين نور هي الأخرى..
ومن بعيد.. كان أحدهم يقف دون أن تظهر ملامحه.. كشبح، يطيل النظر إلى ليلى، ظل في مكمكنه طويلًا، ثم استدار وغادر حتى ابتلعته ظلمه الليل.

***

بعد عام

منذ أن انقطعت عن العمل والدنيا، اعتادت أن تجلس يوميًا في ذلك الوقت ما بين نهارٍ مغادر وليلٍ آت، في شرفتها تقرأ كتاب، شاردة بعض الوقت، وباكية معظمه، رائحته لا تغادرها، مازال صدى صوته في أذنها.. حتى موسيقاه.. مازالت أصداؤها ترتج في المنزل..

وكالنجم المحترق منذ زمن، لكن ضوءه لم يصل إلينا إلا الآن، كانت هي، احترقت روحها مع خالد، وما تعيشه الآن ربما ردة فعل لا أكثر، فروحها فارغة.. خربة.. تنفذ من خلالها الأشياء ولا تستقر، مر عام على رحيله، لكنها تراه كل يوم وكل ليلة، تشعر به يحاوطها، من قال أن الموتى يغادروننا؟ من قال أن صلتهم بنا تنقطع؟ إذا غادرونا فهم يغادروننا متى قررنا نحن النسيان.. متى سمحنا لهم أن يذهبوا من مخيلتنا بلا رجعة، متى استطاع أحد أن يمحوهم من حياتنا، متى استبدلناهم ومحونا ذكرياتهم، لكنها لم تفعل، فقد أصرَّت على الاحتفاظ بكل شيء كما هو، حتى ملابسه، لم تستمع أبدًا لنصيحة نور بالتبرع بها، فكيف لها بالتخلي عن جزء يحمل رائحته!

اعتادت يوميًا أن تكتب له في كشكول صغير.. تحكي له عن يومها، وربما تسترجع حياتهما سويًا، تخشى على ذكرياتها من الفقدان، تكتب كل شيء، حتى دعاباته.

أخرجها من شرودها دقات متتالية على الباب، متبوعة بصوت الجرس، فالتفتت ببطء ولمحت زينب تهرول إلى الباب وفتحته، كانت نور تدخل باتجاهها بعدما أشارت إليها زينب، ابتسمت ليلى لرؤيتها، فنور هي من تبقى لها خارج حدود ذلك المنزل، غير أن الأخرى بدت غاضبة وصوتها يعلو ويسبقها إلى ليلى:

– هو تليفونك ده مالوش لازمة؟ ما ترميه أحسن بقى!

نظرت لها ليلى نظرة مهدئة، وأشارت لها أن تجلس، والتقطت هاتفها، بالفعل استقبلت من نور أكثر من اتصال ورسالة، ولكنها لم تعد تكترث بالنظر إلى هاتفها أبدًا، منذ ذلك اليوم وكل ما بها تغير..

لم تكن تعلم أن انكسار الروح لا يلتئم، صحيح أنها متماسكة ظاهريًا، ولكنها من الداخل مهشمة تمامًا، لمحت نور الكشكول المستقر بين يديها، فأدركت أنها كانت في رحلة مع الذكريات..

– ليلى.. هو فيه حد يا حبيبتي لسه بيكتب مذكراته؟

– خايفة يا نور.. خايفة اصحى في يوم الاقي نفسي نسيت جزء من ذكرياتنا سوا.. أنا..

بترت حديثها عندما أقبلت زينب تحمل كوبًا من العصير لنور.. وتابعتها ليلى صامتة حتى اختفت، والتفتت إلى نور التي بدأت في ارتشافه بسرعة على غير عادتها.. فتعجبت ليلى:

– مالك؟ انتي مش طبيعية..

ابتسمت نور، فقد كانت بالفعل تخفي شيئًا، وبمن يجاذف بكل شيء دفعة واحدة، أخرجت من حقيبتها هدية ملفوفة في شريط مزركش، وناولتها إياها، التقطتها ليلى وتطلعت إليها متسائلة، وبتردد أجابت نور:

– عيد ميلادك الأسبوع الجاي،كل سنة وانتِ طيبة.. وفيه حاجة كمان..

قاطعها نحيب ليلى التي ظلَّت ممسكة بالهدية بلا حراك..

تُقلِّبها بين يديها ويرتفع صوت بكائها.. ففي مثل تلك الأيام كانت جملة "كل سنة واحنا سوا" هي ما ترددها دومًا لخالد، حب العمر، كيف لنور أن تحضر لها هدية!! كيف لها أن تنسى أن ذلك اليوم هو أقسى أيامها!! نحَّت الهدية جانبًا، ومسحت دموعها بيدها.. وأمسكت السلسلة المستقرة على

صدرها بقوة وكأنها تخشى عليها أيضًا من الفراق، قبلتها بهدوء، وأمسكتها بقوة، احتضنتها نور مهدئة إياها قليلًا:

- ليلى.. فات سنة.. سنه بالظبط.. يا ليلى لازم ترجعي لحياتك، مفيش حد بيموت ورا حد، الحياة لازم تمشي، لازم تخرجي، لازم ترجعي لنفسك، بصيلي هنا من فضلك.. انتِ نسيتي انتِ مين، انتِ ليلى سالم.. أشهر وأنجح مذيعة في البلد كلها، لازم تقفي تاني على رجلك..

من بين دموعها، استطاعت نور بالكاد أن تفهم كلمات ليلى..

- مش قادرة يا نور، مش عاوزة اشتغل، مش عاوزة اعمل أي حاجة..

أبعدتها نور برفق، ونظرت مباشرة إلى عينها:

- وبعدين؟؟ هتفضلي كده سنة.. سنتين!! محدش بيزعل طول عمره، وبعدين يا ستي مقولتش انسيه، بس ماتنسيش نفسك، ليلى انتِ لازم تفوقي، تقدري تقوليلي لما فلوسك تخلص هتعملي إيه؟ انتِ سنة كاملة بتسحبي منها، ولو السنة دي بقت اتنين وتلاتة.. هتعملي إيه، فهميني.. طيب لو مش موضوع فلوس، اسمك يا ليلى، لو فضلتي كده هتتنسي، حرام يا ليلى تعب السنين!!

نظرت لها ليلى دون رد، فتابعت نور:

- أنا بحبك يا ليلى، انتِ مش مجرد مذيعة اشتغلت معاها، انتِ صاحبتي، وانا شايفة انك بجد بتضري نفسك أوي..
- والله ما قادره يا نور
- طبيعي ماتقدريش، صوره مالية الدنيا، مبتخرجيش، قاعدة في نفس كل حاجة، دا انتِ كويس انك ماتجننتيش، ليلى فوقي، احنا دلوقتي معروض علينا شغل بالرقم اللي كنتِ عاوزاه، ونختار كل حاجة من الألف للياء، أعتقد دي أنسب فرصة ترجعي بقي!!

ابتعدت ليلى.. في حين تطلعت نور إليها بنظرة حملت الكثير من الرجاء.. فجاء صوتها ضعيفًا:

- طيب.. هافكر.. بس سيبيني، انا لسه محتاجة وقت يا نور..
- مفيش وقت، الناس عاوزة الرد، وعاوزين نختار التيم الجديد، ليلى..

نهضت نور وجلست أمامها أرضًا.. التقطت يديها، نظرت إليها مباشرة:

- يا ليلى ماتضيعيش تعبك وتعبنا كلنا، انتِ نسيتي تعبنا ازاي علشان نوصل للي احنا فيه دلوقتي؟ يا ليلى أرجوكي!!

انهمر الدمع ثانيه من عين ليلى وتشنج صوتها:

- انا كان نفسي ادفنه يا نور، انتِ متخيلة اني باروح قبر فاضي ازوره، للدرجة دي الدنيا عاوزة توجعني؟
- يا حبيبتي، روحه حاسه بيكي، وهو فخور بليلى حبيبته، وهيفرح أكتر لما يلاقيكي رجعتي..

فتابعت نور في لهجة من حسم أمرها:

- ليلي أنا بدأت اجمع الناس اللي هتشتغل معانا، وفيه ٣ في الإعداد حقيقي أحسن من بعض، لازم تقعدي معاهم، وتختاري واحد..
- يا نور....

بلهجة من ينهي النقاش قاطعتها نور:

- مفيش نور.. هتقعدي معاهم، يعني هتقعدي معاهم.

***

بالكاد استطاعت ليلى قبول اقتراح نور، أو لتعترف لنفسها أنها ما رفضت أو تمنعت إلا خوفًا وجبنًا وليس كُرهًا، فهي نفسها مرت عليها أيامٌ اشتاقت فيها لنفسها القديمة، غير أنها كانت تقتل تلك المشاعر في مهدها خشية تسرب

إحداها إلى وجهها، ولمَ الخشية إذن يا ليلى؟ ما الجرم في اشتياقك لروحك؟ حتي عندما أدلت زينب بدلوها في الأمر، وربما للمرة الأولى التي تتدخل في حياتها، لم تعنفها ليلى ولم تنهرها، على العكس وجدت في حديثها القطعة الناقصة لاكتمال اللوحة، وجدت دعمًا غير مباشرًا من زينب.

في لحظات الضعف تلك والحيرة والقلق، يرسل الله لك بالرد من آخر انسان تنتظره، أو تتوقع وجوده من الأساس، وهذا ما حدث مع ليلى.. قررت أن تزيح كل تلك الأفكار والهواجس، وأن تتشبث بالفرصة التي واتتها، فربما تلك الفرصة هي حبل النجاة الوحيد من آلامها.. مضت بها الأيام رتيبة، لا جديد، وإن كان انتظار البرنامج أضفى على حياتها نوعًا من الإثاره، قبيل اليوم المشهود أتت إليها نور بصحبة المحامي الخاص بعبد المجيد لإمضاء العقود، نور تدفعها بقوة إلى العودة، وتضيق عليها الحصار خشية أن تتراجع عن قرارها..

بعد ساعة كانت قد وقعت العقود بالفعل، وغادرت نور بصحبة المحامي، إلا أنها قبيل مغادرتها، همست لليلى:

– بكره ياريت ماتتأخريش.. ميعادنا الساعه ١٠، وياريت بلاش اسود.

***

كالطفل المترقب لأول يوم في مدرسته، كانت ليلى.. فالعودة بعد الانقطاع لهو أمرٌ شاقٌ عليها، مضت ليلتها طويلة مملة، بالكاد غفت واستيقظت مع الشروق، حاولت بكل الطرق إخماد ثورتها وقلقها، كعادتها كتبت إلى خالد كل شيء، وتخيلته يهدئها.. وخلف مكتبها الجديد في تلك المحطة _وبعد تجاوز التهاني من العاملين وترحيبهم بها_ انفردت بنور:

– فين الناس؟ خلينا نخلص..

ناولتها ملفًا صغيرًا مُجيبَة:

– طولي بالك، التلاتة هايلين، بس شوفي ده الأول، هتلاقي حاجه تعجبك.

التقطته ليلى من بين يديها وفتحته بلا مبالاة، طالعتها صورة لشاب تشي عينيه الخضراء بالحزم والذكاء..

ألقت نظرة سريعة ملتهمة الأسطر بحثًا عما تقصده نور.. حتى استوقفها سطر، فلمعت عيناها، فضحكت نور مردفة:

– مش قولتلك هيعجبك!

نقلت ليلى بصرها بينها وبين الملف الكائن بين يديها:

– أنا عاوزة ابدأ بيه.

ابتسمت نور ابتسامة منتصر، ولم لا! فلتوها استطاعت إيقاد تلك النار الخامدة منذ زمن، انصرفت لتلبية طلب ليلى.. لحظات وأقبل هو بمفرده، مد يده بالسلام، فبادلته إياه مشيرة إليه بالجلوس.

صمتٌ مطبق ساد بينهم، كانت ليلى تتظاهر بالتطلع إلى الملف، وإن كان الأمر حقيقة ومن خبرتها أنها تتعمد هذا الأمر..

التوتر والقلق هو ما يفصح عن مكنون الشخصية الحقيقي، لذا تعمدت نقل بصرها بينه وبين الأوراق، وإن خيل لها أنه يتطلع إليها متفحصًا هو الآخر، ومن بين الأوراق ارتفع صوتها:

- اسمك رامي.. ٣٥ سنة.. بتتكلم ٣ لغات.. و.. إيه ده؟ انت كنت شغال مع أشرف!!

وضعت ما بيدها وتطلعت إليه، فأوما برأسه دون رد، فأكملت هي:

- وسبته ليه؟

تسرب صوته العميق الواثق إلى أسماعها.. فاعتدلت مرغمة منصتة إليه..

- زهقت، أشرف وصل لمرحلة من الجمود والخوف معجبتنيش، أنا بحب الجرأة، بحب التجديد.

التمعت عيناها، فقد كان كلامه اعترافًا ضمنيًا بتفوقها على أشرف، وإن نحت انفعالاتها جانبًا وتابعت:

- طيب انت شايف تقدر تفيدني بإيه يا رامي؟

صدمها بالرد، فاتسعت عيناها عن آخرهما:

–مدام ليلى، ممكن اسألك انا سؤال؟ انتِ أصلًا كان عاجبك البرنامج بتاعك؟

صمتٌ ثقيل ساد المكان فتابع:

- أنا كنت باتفرج عليكِ دايمًا.. ماقدرش انكر طاقتك وإصرارك واختيارك للمواضيع، بس طريقة العرض مش حلوة، فيه حاجة دايمًا ناقصة!

ابتسمت في سخريه، وتابع هو الحديث بلا توقف، كان مثقفًا بحق، وصاحب حضور قوي، استطاع أن يمسك بمجريات الحديث ببساطة،

ابتسمت ليلى مهنئة نفسها، فمثل هذا الشاب لا يُترك أبدًا، وإن تصنعت اللامبالاة:

- رامي، انت هتشتغل معايا بعقد مؤقت، واما اشوف انت بتاع كلام بس ولا إيه ظروفك.

تلاقت عيناهما للحظة، فبدا لها هازئًا بكلامها، شعرت بالغضب من نظراته المتحدية فنهضت لمصافحته، فضغط برفق على يدها، فسحبتها مسرعة، وتابع هو:

- تسمحيلي اقولك ليلى بدون ألقاب، أصل انا مش شايف ان بينا فرق سن للرسميات دي، ده انتِ شكلك صغير أوي..

وقع كلماته عليها لا تخطئه عين، فقد توردت وجنتاها رغمًا عنها، وإن أشاحت بوجهها غضبًا فأكمل هو دون اكتراث:

- مش شايفه ان شعرك ده محتاج يتقص وتغيري لونه شوية؟ جددي في نفسك، ماتبقيش محلك سر.

وغادر بلا كلمة إضافية.. وإن خلَّف بداخلها زوبعة.. فجلست شاردة وصدى كلماته يدوي في أذنها..

لحظات وعادت نور متسائلة عن الأمر، فأجابتها ليلى من وسط خيالاتها:

- نور، هو انا محتاجة أقص شعري واصبغه؟

- ده لازم.. بس غريبة.. أنا كنت مترددة اقولك كده علشان عارفة إن ده مستحيل.

أمسكت ليلى بخصلة هاربة من شعرها متطلعة إليها، فأطَّل الفضول جليًا من عين نور، وإن تجاوزت الأمر إلى شيءٍ آخر:

- أدَخَّل التاني ولا اعمل إيه؟

- لا خلاص.. أنا عجبني رامي جدًا، ممكن تعتذري للباقي؟

بدون فهم أو استيعاب لما يحدث، غادرت نور، وتركت ليلى مع أفكارها وتلك الخصلة بيدها وسؤال يلح عليها.. هل حقًّا تملك القدرة على التغيير؟

***

وبمجرد مغادرته، نزع عن وجهه قناع الجد واللامبالاة الذي تعمد ارتداءه طيلة الوقت المنقضي مع ليلى، واكتسى وجهه بسعادة حقيقية لا تخطئها العين، فللسعادة طاقة، كما الحزن تمامًا، فإذا كان الحزن ينتقل بسهولة، فقوة الفرح أكبر، وكيف لا يكون سعيدًا وقد أصاب هدفه منذ المرة الأولى.

وبوجهٍ ضاحك وأعين لامعة، استقل سيارته في طريقه إلى منزل والده، كان رامي يقطن بالمعادي حتى وقت قريب.. وغادرها إلى السادس من أكتوبر هربًا.

فالهرب أحيانًا هو الملجأ الوحيد.. فأي حل أسهل وأسلم منه؟؟ أو هكذا ظن.. أخيرًا وجد نفسه بجوار منزله، دار بلا جدوى قرابة النصف ساعة باحثًا عن ركنة لسيارته حتى وجدها أخيرًا بعد شارعين من منزله.. تأكد أن قراره بالرحيل صحيح.. ترجل حتى باب المنزل الحديدي.. كعادته لم يستخدم الأسانسير.. ذلك الدخيل على المنزل بعد أن أصر السكان على تركيبه.. تجاوز السلم عدوًا إلى الطابق الثاني مباشرةً.. وقف ثوانٍ أمام باب شقته متأملًا إياه كغريب يراه للمرة الأولى.. أو ربما هي الوحشة.. تطلع إلى اللافتة

التي تستقر أعلى الجرس.. وتحمل اسم والده.. لمسها بيده.. لا يدري لمَ فعل هذا.. التقط نفسًا عميقًا وفتح الباب ودخل مباشرةً إلى الشرفة.. حيث كان والده كعادته يجلس وحيدًا متطلعًا إلى أقفاص العصافير التي يقتنيها، رفيقته الوحيده بعد أن انتزع الموت منه قسرًا رفيقة الروح، تطلع إليه رامي للحظات..

لم يتغير شيء به منذ رحيلها سوى انطفاء بريق عينيه الخضراء، تلك التي ورثها هو منه، مازال كما هو حريصًا على ملابسه وأناقته، عطره يغمر المكان، يمارس الرياضة يوميًا برغم كل شيء، شعر رامي لوهله أنه يتطلع إلى صورته المستقبلية، طبع قبلة حانية على جبينه، وجلس قبالته هو الآخر يتطلع إلى العصافير ضاحكًا، ربما تلك المرة الأولى منذ مدة التي يلمح فيها والده تلك الابتسامة، فألهب الأمر فضوله فتطلع إليه مستفهمًا، فتحايل رامي على الأمر بسؤالٍ آخر:

- اتغديت يا بابا؟

أدرك والده أنه يهرب من الإجابه، فلم يشأ الضغط عليه، وأومأ بالإيجاب:

- من بدري.. إيه اللي رماك عليَّا، ما انت بقالك أسبوعين ولا تلاتة مابتسألش.. بطلت أعد..

شعر بالخجل من نفسه، والده محق، أهمل في حقه كثيرًا:

– حقك عليَّا، بس كنت باشوف شغل جديد.

لم يزد كثيرًا، فاستحثته نظرة والده على الاستمرار:

– عارف ليلي سالم؟ هاشتغل معاها.

تهللت أسارير والده:

– ليك حق تتبسط، الست دي أنا بحبها، كويس انك مشيت من عند الراجل اللي اسمه أشرف، معرفش انت مستحمله ازاي حقيقة يعني!!

ابتسم رامي.. ومر بهم الوقت صامتًا..

والده مع العصافير، وهو مع هاتفه.. وكأن جبلًا غير مرئيٍ حال بينهما.. وإن رمقه والده بنظرات عتاب لم يلتقطها رامي أبدًا..

طال صمتهم.. حتي استعد رامي للمغادرة، فاستوقفه صوت والده غاضبًا:

– إنت كنت جاي ليه يا رامي؟ بتقضي واجب؟

بهت من لهجة أبيه التي تحمل عتابًا غاضبًا.. فتابع والده:

– لو على الواجب يا ابني ماتجيش.. ريح نفسك أنا كويس.. مش الساعة اللي بتحن عليا بيها دي هي اللي هتريحني.. وياريتك قعدت معايا حتى.. ماسك التليفون برضو، انا مش عاوز شبح ولا خيال يا رامي.. امشي.

- يا بابا..

- عارف لو ماكُنتش جيت.. كان بقى أحسن.. لكن جاي قاعد جنبي وعقلك مش معايا.. مشوار تقيل أوي على قلبك يا رامي.

بهت رامي من كلام والده.. قطعًا لا يقصد أبدًا.. ولكنه محق.. فحتى وإن كان يحمل في قلبه لوالده حبًا يوازي حب أهل الأرض مجتمعين.. فلمَ لا يخبره.. لمَ لا يظهره؟! ما فائدة أن أحبك ولا أظهر لك ولو جزءًا يسيرًا من هذا الحب؟! قطعًا هذا هو البخل في أوضح معانيه.. وأصعب أنواعه.

طبع قبلة على رأس أبيه معتذرًا:

- والله العظيم ما اقصد.. حقك عليا.

***

بعد أسابيع.. تقاذفها التردد والخوف فيما بينهم، حسمت ليلى أمرها، وقررت الأخذ بنصيحة الوافد الجديد، ليس لشيء إلا أنها أدركت أنه محق، فهي بحاجة إلى إحداث تغيير ولو ظاهري يوحي لها بأنها مازالت حية تتنفس.. استجمعت قواها، ووطأت بقدميها الكوافير، ذلك الذي اعتادت القدوم إليه دومًا وهي صغيرة مع أمها وأختها.. اختارته على صغره وقدمه وكأنها تحاول لملمة شتات نفسها بالذود والاحتماء بذكرياتها، فمهما تغيرت بنا الأماكن

والظروف، مهما تدرجنا في المناصب أو أصبحنا ذوي شأن، يبقى الحنين دومًا لأشيائنا الأولى، لتلك التي كنا فيها نحن على سجيتنا، تلك الشاهدة على ذكرياتنا وأحلامنا البريئة.

لمَ يسعد أحدنا بنزهة في مركب بسيط على النيل، على الرغم من قدرته على التنزه في أرقى الأماكن؟ أو تناول طبق من البطاطا الساخنة من على عربة في الشارع؟ لماذا تلك الأشياء البسيطة تبدو لنا وكأنها الجنة؟ هل لأنها تحمل قطعة من روحنا معها! أم لأنها تعيد إلينا ولو جزءًا بسيطًا من أرواحنا المفقودة!!

تفحصت المكان بهدوء، وكأنها تركته أمس.. مازال كما هو بتلك الملصقات الباهتة على الحوائط لـ "مارلين مونرو"، وبجوارها "هند رستم"، صورة توحي أن هذا المكان يتجاوز عمره النصف قرن على أقل تقدير.. لا يحتوي إلا على مقعدين وحوض واحد لغسيل الشعر، ومن وراء الستار استُحدِث مكانٌ آخر للمحجبات.. مكان تقليدي لأقصى درجة.. لا يليق بها الآن.. ربما هذا هو سبب دهشة العاملات وتمتمتهن بصوت خفيض، وإسراع إحداهن لمناداة صاحبة المكان.. والتي أقبلت غير مستوعبة الأمر والضجة المثارة، حتى لمحتها، فاحتضنتها بشوق.

فلا أحد يعلم أن صاحبة الكوافير، هي "طنط وفاء"، كما اعتادت ليلى مناداتها.. تلك التي كبرت ليلى بين يديها، التي دومًا ما دللتها وقصت لها شعرها كما أرادت، وإن اعترضت أمها..

تركت ليلى نفسها بين أحضانها قليلًا، وكأنها تستحضر حنان أمها الراحلة، أجلستها وفاء بجوارها، وسألتها عن أخبارها، وأنها حضرت العزاء وإن لم تستطع الوصول إليها من شدة الزحام وقتها، ربتت ليلى على يدها، وأخبرتها هي الأخرى عن عودتها قريبًا ببرنامج جديد، ارتسمت ابتسامة صادقة على وجه وفاء، ودعت لها من قلبها بالراحة، طلبت منها ليلى تغيير لون شعرها، فتساءلت وفاء بدهشة:

- معقول!! ده انتِ عمرك ما عملتيها!

أجابتها ليلى بابتسامة، وبينما انهمك العاملون في تحضير الصبغة وغسيل شعرها إلى آخر تلك الأمور، سرَحَت هي مع رامي، ذلك الذي بكلمة منه ــربما عاديةــ تُسلم رأسها الآن لخمسة أشخاص على الأقل!

الأنثى تلتقط دومًا نظرات الإعجاب والرغبة فيها بسهولة.. رادار فطري وهبه الخالق لها.. وليلى ليست كأي أنثى.. هي أنثى جميلة ذكية.. عشرات الموجات تبث إليه، إلا أنها دومًا ما تصطدم بجمودها وجديتها.. إلا ذلك اللعين الذي اخترقها بنظراتٍ متفحصةٍ طيلة الأسابيع المنقضية، انسابت

بداخلها بهدوء ووداعة ولامست مواطن الضعف داخلها.. بلا تجريح أو تصريح.. وها هي تستمع إلى نصيحته الآن..

انتبهت من شرودها على صوت وفاء تخبرها بانتهائهم، وأن الأمر حقًا كان يستحق المغامرة، تطلعت ليلى إلى وجهها في المرآة، بدت أصغر وأجمل، ومفعمة بحيوية، يبدو أن الشعر الفاتح ألقى بظلاله على وجهها فأضاءه..

غادرت الكوافير مصحوبة بدعوات وفاء، وهي تشعر بروحها أخف، وكأنها تخلصت من أثقال روحها..

عجيبٌ ذلك الأمر، هل تلك الخصلات هي السبب؟ أم أننا نوهم أنفسنا فقط بأن تغيير جلل حدث، فالأمر برمته لا يعدو كونه التخلي عن بضع سنتيمترات، ابتسمت عندما مرق ببالها المقولة الشهيرة التي ما دأبت على وصفها بالخائبة: "عندما تقص المرأه شعرها، فهي بصدد تغيير حياتها"..

فأي تغيير قد يطول حياتها، وأي حجر قد يحرك الماء الراكد؟ فحياتها انتهت عندما انتزع الموت منها خالد قسرًا، حب العمر ورفيق الدرب، تفتقده.. لن تنكر هذا، حتى وإن ادَّعت أنها تجاوزت الأمر، تفتقد صوته، ضحكاته، تفتقد الأمان في كنفه، هو الوحيد الذي كانت تتجرد أمامه من كل شيء، تلقي بهمومها على أكتافه، تبكي معه وفي أحضانه، تعود إلى ضعفها الأنثوي،

يفهمها حتى دون حديث، وكأن روحه حلَّت في جسدها.. آه يا خالد.. غادرت بلا ميعاد.. غادرت وتركت فتاتك وحيدة..

زفرت في ضيق وشوق، وعادت إلى منزلها الموحش.. ولا شيء يؤنس وحدتها إلا تلك الموسيقي التي اعتادت سماعها معه دومًا.. "كمان ليلى"

***

كمن يعيد تشغيل شريط فيديو، عادت حياتها كما كانت.. بنفس الروتين والرتابة والتكرار، إلا أن ما تغير فقط هو وجود رامي.. ذلك الذي تجاهلها تمامًا إلا في دائرة العمل، وبرغم تعقيب الجميع على لون شعرها والثناء عليه.. إلا أنه لم يفعل.. وكأنه يتعمد ذلك!!

ولكن يبدو أنه اتخذ من المفاجآت منهاجًا، إذ أقبل تجاهها قبيل تصوير البرومو وانتحى بها جانبًا مبتسمًا وهو ينظر في عينيها مباشرة:

– أنا عاوز اقولك من أول يوم انك زي القمر، ماتبصيش كده.. أنا بعاكس أيوه..

ثم نظر مباشرة في عينيها قائلًا: شكلك يجنن.

وانسحب بهدوء دون أن يدري أنه قذف الحمم بداخلها، حاولت التماسك، خاصة عندما أقبلت نور تجاهها:

- مالك وشك اصفر ليه!! تحبي نأجل التصوير؟
- لا أنا كويسه، يلَّا بينا..

وعندما مرت بجوار رامي.. ابتسم لها، فلم تستطع إلا مبادلته الابتسام.. وأسرعت الخطى هربًا من خجل كاد أن يغرقها.. وما انتشلها منه إلا ذلك الصوت الآتي من بعيد، ثري، تو، وان.. هوا.

***

ملأت سحب الدخان المنبعثة من السيجار سماء الغرفة.. إذ نسيها أشرف من فرط انغماسه في إنهاء مقاله وهو منكفيء على شاشة اللاب توب مرتديًا نظارته..

استغرقه الأمر تمامًا.. فبرغم كونه من غير المهتمين بالمقالات أو غيرها، إلا أنه لم يمانع عندما طلب منه أحد أصدقائه كتابة عامود أسبوعي في تلك الجريدة.. فما وافق إلا رغبة منه في إضافة لقب جديد إلى ألقابه المتعددة، كالباحث والمفكر إلى غيرها.. الأمر الذي يشعره بمزيد من التفوق واتساع الفارق بينه وبين جميع من حوله..

ولم ينتزعه من تركيزه سوى رنين الهاتف.. ألقى نظرة خاطفة على الاسم.. "كريم"، التقطه دون اهتمام، وما أن استمع إليه حتى اعتدل فجأة كمن لدغه

عقرب، التقط الريموت من أمامه وبحث في لهفة عن القناة المنشودة، حيث أخبره ببرومو لبرنامج ليلى الجديد، وعودتها على تلك المحطة الجديدة، أصابه الأمر بالدهشة والحيرة، فآخر مكالمة بينهما منذ شهرين أو يزيد، بدت فيها بائسة يائسة، كيف لها أن تنهض من عثرتها بتلك القوة والسرعة!! صمت قليلًا.. ثم أمعن النظر فيها.. هي نفسها.. بكل ما فيها من مرحٍ وتحدٍ وقوة.. وكأنها ما انقطعت قط.. حدَّثَ نفسه:

- يالعينة.. أنت كالعنقاء إذن!!

برنامج أسبوعي آخر.. أولى الحلقات الأسبوع المقبل.. أووووف.....

- كريم.. أنا عاوز اعرف كل التفاصيل.. مين معاها، بتاخد كام، نوع البرنامج إيه، البرومو غامض شوية..

ودون أن يستمع رد محدثه أغلق الهاتف وزفر في ضيق:

- لما اشوف آخرتها معاكِ يا ليلى!!

***

البطء والترقب هما صديقاها اللذان أبيَا أن يفارقاها..

تمضي وقتها في متابعة ردود الأفعال على وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة.. رفضت العديد من المقابلات واللقائات الصحفية.. يكفيها

توترها.. لا تريد مزيدًا من الأسئلة السخيفة والحصريات التي لن تفيدها.. ليكن ظهورها الأول على برنامجها هي.. لن تعطي لأحدهم انتصارًا على حسابها أبدًا..

هكذا هي دومًا.. ليلى في المقدمة، ومن بعدها يأتي الجميع.

وكل يوم يمر.. يزداد توترها.. فأضحت المهدئات رفيقتها الدائمة.. فأشفقت عليها نور واقترحت أن تكون الحلقة الأولى مسجلة.. إلا أنها رفضت تمامًا.. فإن كانت انتوت العودة والعمل؛ فلتعد كما كانت.. بل أقوى من ذي قبل..

فتحت البرومو ربما للمرة الألف، وأقبلت زينب تجاهها متسائلة هل تعد العشاء؟ أشارت ليلى بالنفي، فاستأذنتها في المغادرة، وبينما تستعد للنوم؛ رن هاتفها باسم رامي، فتعجبت!! ألقت نظرة خاطفة على الساعة.. تجاوزت الحادية عشر..

- رامي، خير فيه إيه؟

صمتَ قليلًا ثم تنحنح في حرج:

- طيب قولي ازَّيك الأول!

لم تُجب، فتابع:

- فيه حاجة مهمة ياريت تاخدي بالك منها، كل ما افتكر اقولك متجيش مناسبة.. لبسك ياليلى..

صمتَ قليلًا.. فتساءلت هي:

- ماله؟

- محتاج تعديل، مش حلو بصراحة، مكرر كده وزي الباقي.. انتِ مميزة، لازم تبقي مختلفة حتى في لبسك.. افتكري كويس.. انتِ مش أي حد، هبعتلك حالًا اسم محل رائع، صدقيني هيعجبك، تصبحي على خير.

أنهى المكالمة دون انتظار للرد، فقط يملي عليها أوامره هكذا ببساطة.. مندهشه من جرأته، فمنذ الوهلة الأولى يخاطبها ليلى، يذيب الفوارق بينهم بسرعة شديدة، والأغرب أنها مستسلمة تمامًا، فاقدة حتى الرغبة على الاعتراض!!

"مالك يا ليلى! من إمتى حد بيكلمك كده!" مرقت تلك العبارة برأسها سريعًا.. فتحايلت عليها بالنوم، وإن ظلت كالأشواك تؤرق مضجعها، حتى مضى بها الليل أخيرًا، وشق ظلمته الحالكة نور الفجر، فنهضت من فورها واغتسلت، وفتحت جميع نوافذ المنزل، وبرغم اعتيادها الوحدة.. إلا أن الخوف تملكها ربما للمرة الأولى، وزاحم خوفها ألمٌ وليد انبعث بداخلها.. ألمٌ تدرك سببه جيدًا.. وإن ادَّعت العكس.. رامي، ذلك الذي بسببه تأرق نومها..

أمسكت بكوب النسكافيه بين يديها، وفتحت اللاب توب، بحثت عن صفحته الشخصية على فيس بوك، لا تدري لمَ تفعل هذا! ربما الفضول!
لم تجد الكثير.. بضع صور له مع أصدقائه، معلومات بسيطة عنه، صور بمفرده، تفحصتها بدقة.. لأول مرة تلمح تفصيلات وجهه تلك.. طابع الحسن وتلك الغمازة التي تظهر على استحياء.. ربما.. لا لا.. نهرت نفسها بقوة، ووضعت ما بيدها، وارتدت ملابسها وخرجت على غير هدى.
بعد أن تملَّكها الملل؛ قررت الذهاب إلى المكان الذي أخبرها هو به، تطلعت إلى فاترينات العرض.. قلما تجد ما يلفت انتباهها.. إلا أنها دخلت مدفوعة بفضولها.. واستقبلها الجميع بالترحاب كالعادة، تفحصت المعروضات باهتمام حقيقي، وبمساعدة إحداهن وبعد مرور ساعتين.. انتقت واختارت ما يليق.. حتى أنها غادرت مرتدية أحد الأثواب الجديدة.
الأنثى هي الأنثى في أي مكان او زمان، مهما تدرجت في المناصب أو تقدم بها العمر، فرحتها بثوبٍ جديد أو زجاجه عطر لا تتغير أبدًا.. تلك الأشياء التي تشعرها بأنوثتها، تلك هي طبيعتها التي فُطِرت عليها، ولكن.. تأرجح السلسلة الرابضة على صدرها وخز قلبها بقوة.. كأنها تذكرها بوجودها، فانتقص الأمر من فرحتها، استقلت سيارتها إلى كافيه قريب حيث التقت نور

التي تفاجأت تمامًا بالأمر، جلست قبالتها والدهشة مازالت تكسو نور.. طلبت ليلى قهوة والتفتت إلى نور التي مازالت على دهشتها.. فسألتها:

- مالك يا نور؟

- لا بقى، ده احنا ناويين نكسر الدنيا، انتِ جايبة اللبس ده منين؟ تحفة!!

بلا مبالاة أجابت ليلى:

- ده رامي قاللي عليه و..

قاطعتها نور بخبث شديد:

- صحيح إيه حكاية رامي؟ لمحته كذا مرة مركز معاكي أوي، ودلوقتي بيقولك على لبس، ده مُعِد إيه ده!!

ابتسمت ليلى، وإن تعمدت عدم الرد، فتابعت نور:

- بصي، هو رخم وشايف نفسه، بس دماغه حلوة

سكتت برهة ثم أردفت في خبث:

- هو مش دماغه بس حقيقة..

ارتفعت ضحكات ليلى، واصفة إياها بالمجنونة، فما يجول في خاطرها الآن درب من دروب الجنون، رامي مجرد مُعِد برامج، التقته منذ أسابيع قليلة، لا يعدو الأمر أكثر من ترهات وخيالات في عقلها.

وجدت نفسها تسرح معه فهزت رأسها بقوة.. وتطلعت إلى نور التي بدا وكأن صوتها يأتي من بعيد، فبذلت جهدًا للتركيز معها:

- بكره أول حلقة والناس مستنياها على نار، وأنا معاهم كمان

- أنا خايفة جدًا، عارفة.. كأني أول مرة هاقف قصاد كاميرا..

طمأنتها نور، وأخبرتها أن الأمر طبيعي، ولكنها لا تنسى أبدًا من هي وأن الجميع منتظر تلك الحلقة.. وإن اختلفت النوايا، فمنهم من ينتظرها حبًا فيها، ومنهم من ينتظر سقوطها، فهذا هو اليوم الفاصل، أومأت ليلى برأسها مصدقة على كلامها وأضافت:

- عموما رامي..

بترت ليلى عبارتها مع تلك النظرة الساخرة المطلة من عين نور، وبدا صوت نور ساخرًا وهي تردف:

- بس رامي يا نور مجرد "سديق"..

ابتسمت ليلى لطريقة نور الساخرة، بعد قرابة االساعة غادرت ليلى وتابعتها نور بعينها حتى اختفت.. وبعقلٍ شاردٍ كانت ليلى، فلم تنتبه إلا وهي أمام قبر خالد، لا تعلم لمَ فعلت هذا!! غير أنها تحتاجه فقط..

جثت على ركبتيها أمام القبر متحسسةً إياه بيدها مستحضرةً صورته:

– خالد.. وحشتني أوي.. الدنيا من غيرك وحشة بجد.. حياتي ناقصة.. قلبي ناقصه دقة.. أنا عارفه انك سامعني..

جلست بصحبته طويلًا.. ودَّت لو أجابها ولو مرة واحدة، لو احتضنته دقيقة واحدة.. فقط دقيقة يا الله؟!

انهمرت دموعها أنهارًا.. تتمنى دقيقة وهو الذي كان بصحبتها سنوات.. لم الفراق يا الله؟ لم الوجع؟ لم الموت؟ لم نحب إذن؟ أنحب لنفارق؟!

لا تعلم كم مر من الوقت وهي على حالها؛ إلا عندما أوشكت الشمس على المغيب، فنهضت تلملم شتات نفسها.

وما أن استقلت سيارتها؛ حتى تركت العنان لدموعها من جديد.. صرخت وبكت.. رن هاتفها.. فمسحت دموعها وكأنها تخشى أن يراها رامي من خلف الشاشة.. وأجابت، فانبعث صوته في السيارة مرحًا:

– عاملة إيه؟

لم تجب.. فتنحنح هو وتابع:

- بعتِّلك النقاط الأساسية لحلقة بكره، والاسكريبت كله هيوصلك بالليل.

وبصوتٍ مختنق، وإن حاولت أن يبدو طبيعيًا:

- أوكِ يا رامي.. سلام.

تشعر بحالتها تسوء، لم تكن زيارة خالد في ذلك التوقيت فكرة صائبة أبدًا، عادت إلى منزلها، أغلقت الهاتف، ألقت بجسدها على السرير بملابسها، بين اليقظة والنوم كان حالها، عشرات الكوابيس هاجمتها، حتى انتزعها جرس الباب من غفوتها، نهضت متثاقلة، ونزلت إلى الأسفل مترنحة قليلًا، فهي لم تستفِق بعد، فتحت الباب.. فوجئت برامي أمامها، تسمرت مكانها لحظات غير مستوعبة الأمر، حتى أزاح هو يدها وخطا إلى الداخل، أغلقت الباب وراءه غير مصدقة الأمر، جلست قبالته في توتر ملحوظ، تفرك يدها باستمرار، فابتسم هو ملطفًا ومهدئًا:

- قافله تليفونك ليه؟ مش عارف اوصلك.

- انت أصلًا عرفت عنواني منين؟

- أنا عندي مصادري.

ابتسامة خفيفة عرفت طريقها إلى شفاه ليلى مُرغَمة، فقد تعمد رامي نطق جملته الأخيرة بطريقة العالم ببواطن الأمور، الواثق من نفسه.

– مقولتيليش.. قافلة تليفونك ليه؟ وصوتك ماله؟ وقاعدة باللبس ده ليه!!

لم تُجِب، وإن كانت نظرتها الخاوية تشي بحالها.. فكرر هو سؤاله ثانية، فأجابت بصوت واهن كروحها تمامًا:

– أنا كويسة، مفيش حاجة، انت كنت عاوز إيه؟

اقترب منها:

– لا انتِ مش كويسة، وده مش شكل واحدة عندها برنامج بكره!!

نظرت إليه متوسلةً أن يتركها.. ألا يضغط على أعصابها بهذا الشكل.. اهتمامه يؤذيها، فغاصت في الكرسي أكثر وكأنها تحتمي به منه، فتابع:

– ليلى، أيًّا كان السبب اللي موترك كده، بكره يوم مهم، ومهم أوي كمان، إرمي أي قلق ورا ضهرك.. أقولك.. تعالي نخرج..

هزت رأسها بالنفي، فتابع:

– هستناكي في العربية.

نهض من مكانه وخطا باتجاه الباب، ثم توقف مرة واحدة واستدرا إليها وقال بلهجة حاسمة:

– ليلى.. مش هاسمحلك بالفشل أبدًا وانا موجود.

وأغلق الباب وراءه بهدوء، في حين جلست هي غير مستوعبة الأمر، هل كان حقيقيًا؟ أم كانت تحلم! نهضت من مكانها وأزاحت الستارة وأغلقتها مسرعة، فقد كان يجلس في سيارته.. الأمر حقيقي إذن، وذلك المجنون ينتظرها، ولكن.. أتسايره في جنونه؟!

أرسلت له برسالة، معتذرة، ومن وراء الستار لمحته يقرأها والتعجب يستعمر ملامحه.. لحظات وغادر مبتعدًا والحزي رفيقه.

صعدت هي إلى الأعلى، ولأول مرة منذ أن فارقها، تجلس على الشيزلونج.. محتميةً بروحه ورائحته العالقة به.. ليتك بجواري يا حبيبي.. يا الله.. يكفيها وجعًا.. أخرجت الكمان من مكانه الذي ما غادره أبدًا منذ غادر صاحبه، متطلعة إليه في علبته.. بحثت عن النوتة فلم تجدها.. أضاعتها إذن.. فانهمرت الدموع من عينها وكأنها فقدت قطعة من روحها.. أعادته مكانه دون حتى أن تخرجه من صندوقه.

***

خلية نحل، هذا هو الوصف الدقيق للاستديو، قبيل دقائق من انطلاق برنامج ليلى..

عبد المجيد متوتر لا يكف عن الصياح، ونور تحاول إبعاده بشتى الطرق، أما ليلى.. فقد أنهت وضع المكياج، وذهبت لارتداء ملابسها.. ثم عادت مره

أخرى إلى حجره الماكيير.. أمسكت الفرشاة، ووضعتها مكانها ثانية، متوترة.. التقطت نفسًا عميقًا، وتطلعت إلى نفسها في المرآة.. استعادت رباطة جأشها وغادرت إلى الاستديو.. لم يتبق سوى دقائق، اقترب منها رامي حاملًا بين يديه كوبًا من النعناع، مردفًا بصوتٍ خفيض:

– مع إني زعلان من حركة امبارح، بس بعدين نتكلم.. مش وقته.

ابتسمت والتقطت منه الكوب وذهبت لنور، أخبرتها أن الوقت المتبقي أقل من ٥ دقائق، مصر جميعها مترقبه، مصدر من مكتب أشرف أخبرها بأنه لم ينَم من الأمس، منتظر بفارغ الصبر، وأن الإشارات عندها سجلت نسب مشاهدة قياسية.. ارتشفت رشفة من الكوب في محاولة لتهدئة أعصابها، أشارت لها نور أن تجلس، اعتدلت ليلى في مكانها، وصوت نور: ثري.. تو.. وان.. هوا.

رسمت ابتسامة على وجهها وبدأت.. خرج صوتها رغمًا عنها خافتًا:

– مساء الخير.. وحشتوني أوي.. سنة بالظبط من آخر مرة اتقابلنا.. بس مكانش بإيدي اني أغيب..

حاولت التماسك وإن حاولت دمعة ساخنة أن تتسرب رغمًا عنها، فحبستها مسرعة.. صمتت قليلًا ثم تابعت:

- احنا صحيح راجعين ببرنامج جديد، وقضايا جديدة، وشكل جديد.. بس المحتوى بتاعي ثابت.. أنا دايمًا وفي أي مكان باكشف المستور والمسكوت عنه..

تصمت لحظة.. تلتقط نفسًا عميقًا وتتابع:

- وبالًا نشوف أول تقرير معانا..

اعتدلت في جلستها متابعة التقرير المعروض.. عن زواج القاصرات، مرفق به قصص حقيقية لفتيات يتحدثن عن تجربتهن بالفعل، أو مأساتهن.. فتيات تجاوزن العاشرة بقليل.. أطفال.. مجرد أطفال انتُهِكَت براءتهن.. حتى أن رامي قُبَيل العرض مباشرة أرفق قصة الفتاة الأفغانية الشهيرة "حماية" تلك التي لم تتعدَّ العاشرة وقتلها زوجها انتقامًا، تابعت التقرير وإن أشاحت بوجهها مع صور قتل الأفغانية، فالتقت عينها برامي الذي أشار لها أن تلتقط الهاتف، فإذ به يرسل لها برسالة:

- ليلى.. انتِ هايلة، ركزي كده، وهتكسري الدنيا.

انتفض قلبها.. وكأن خالد بُعِثَ من جديد، وكأنه يرسل لها دعمه عن طريق أحدهم، أيُعقَل هذا الأمر؟ انتهى التقرير وتجاوزت هي الأمر مع سيلٍ من الرسائل على منصات السوشيال ميديا المختلفة، وعلى رقم البرنامج، ومداخلات من الجمهور، مهنئين بعودتها.. مضى بها الوقت سريعًا، واندمجت

هي كعادتها.. حتى أشارت لها نور إشارة معناها النهاية، فختمت الحلقة بخاتمتها الشهيرة.

ألقت المايك والتقطت أنفاسها اللاهثة.. لا تصدق أن حلقتها الأولى مرَّت.. أقبل الجميع تجاهها مهنئين، في حين انزوى رامي بعيدًا يتابعها في صمت، علا صوت عبد المجيد مهنئًا إياها.. داعيًا الجميع للاحتفال بإطلاق البرنامج، حاولت الاعتذار، غير أن الطاقم بأكمله أصرّ، فلم تجد بُدًّا من الموافقة، وغادرت بصحبة نور، وتبعهم الباقين.

وفي نفس الفندق الذي التقت فيه عبد المجيد أول مرة، كان اللقاء الثاني، ولكن شتان بين اللقاءَين.

انجرفت مع ذكرياتها مُرغَمة.. حتى انتزعها منها شخصان يحملان تورتة تحمل اسمها وصورتها، وأصوات تعلو "هابي بيرث داي تو يو"، فقفزت إلى ذهنها صورة احتفالها العام الماضي مع خالد.. والأرض الممتلئة بالورود، وهديته التي ما زالت رابضة على صدرها، فأمسكت بها وبكت في صمت، فاحتضنتها نور، وهمست في أذنها:

– مش وقته.. اجمدي كده يا ليلى.

ابتعدت عنها في رفق، ومسحت دموعها بيدها، وتطلعت إلى الجميع شاكرة إياهم:

– أنا حقيقي متشكرة، مش عارفة أقولكوا إيه!

ارتفع صوت عبد المجيد عاليًا:

– ماتقوليش حاجة يا وش السعد، يالّا اطفي الشمع واتمني أمنية..

ابتسمت ليلى له، يبدو لطيفًا، ليس كما رأته أول مرة، انهمك الجميع في الغناء، في حين أرسل لها رامي برسالة:

– ماكُنتش اعرف انه النهارده، بس هديتك موجودة، صحيح اتمنيتي إيه بقى؟

ابتسمت له، وتجاهلت الرد.. وتظاهرت بالانشغال مع الجميع، وإن تلاقت أعينهما كثيرًا..

مضى الليل سريعًا، وانصرف الجميع كلٌ في طريقه، نزلت ليلى إلى الباركينج بصحبة نور، فمازحتها:

– بس انا ملاحظة ان الدنيا بتطور..

لم تشأ ليلى التعقيب، بل تجاهلت الأمر متعمدة، فأردفت الأخرى:

– طمنيني لما توصلي يا ليلى، مع إني باقول تيجي تباتي معايا أحسن ما انا قاعدة لوحدي.

– ما انتِ عارفة.. مش بارتاح غير في بيتي، تصبحي على خير.

وما أن استقلت سيارتها حتى تفاجأت برامي يرسل إليها بسيلٍ من الرسائل، كلها تدور في نفس الإطار.. "سوقي بالراحة".. "طمنيني عليكِ".. "وصلتي؟"..

زحف شبح ابتسامة على شفتيها، فنحَّت الهاتف جانبًا، وانطلقت بالسيارة عائدة إلى منزلها، كان الطريق في مثل هذا الوقت يبدو خاويًا، فلم تستغرق أكثر من عشرين دقيقة حتى وصلت، دخلت إلى المنزل وبدلت ثيابها، مسترجعة تفاصيل ذلك اليوم الرائع، جلست في السرير، وتصفحت السوشال ميديا، اسمها متصدر بقوة، فابتسمت.. اليوم فقط عادت للحياة ثانية.

كانت على وشك النوم عندما رن الهاتف باسم "رامي".. ترددت قليلًا، حتى حسمت يدها التردد وضغطت على زر الرد، صمتت قليلًا في حين انبعث صوته:

- ليلى.. انتِ معايا؟
- أيوه يا رامي.. فيه حاجة؟

تفاجأ بالأسلوب، فاعتذر منها، وأغلق الهاتف، شعرت هي بحمق ردها، فأرسلت له برسالة اعتذار..

"رامي، حقيقي انا آسفه، ماكنتش أقصد"..

رن الهاتف مرة أخرى، ومضى بهم الوقت في أحاديثٍ ضاحكة.. أذابت جبالًا من الرسميات بينهم، حتى سمعت رنين جرس الباب..

- استني ثواني، فيه حد بيخبط على الباب، هكلمك تاني..
- طيب ماتفتحيش دلوقتي، الوقت اتأخر..

طمأنته ليلى، أغلقت الهاتف ونزلت إلى أسفل، فتحت الباب، ولم تجد أحدًا، خطت إلى الخارج قليلًا.. لا أحد.. لتصطدم قدميها بـ"صندوق" مربع أزرق اللون، مزين بشريط فضي لامع، موضوع أرضا، انحنت لالتقاطه، ووجدت به بطاقة تهنئة كُتِب بداخلها "إلى ليلى"، دخلت إلى المنزل والفضول يقتلها.. فتحته بلهفة حقيقة.. تفاجأت بما في داخله.. زجاجة برتقالية لعطرها المفضل "كينزو" وُضِعَت وسط الكثير من الشرائط والكُريَات الملونة.. مرت لحظات وهي غير مستوعبة الأمر.. من يعلم أنها تستخدم مثل هذا العطر؟ قِلَّة فقط من يعلمون بوجود هذا العطر من الأساس.. الكثير يعتقد أن عطرها هو "ديور" حتى نور.. ولم تخبر أي أحد بالحقيقة.. حتى اللون البرتقالي.. هو لونها المفضل!!

أمسكتها بين يديها متطلعةً إليها.. والفضول يلتهمها.. فتحتها.. ربما هي مخطئة.. غمرتها الفانيلَّا.. عشقها الأوحد منذ أن أهداها والدها أول زجاجة عطر وهي ابنة الخامسة عشر برائحة الفانيليا..

ومن يومها تعددت الأنواع واختلفت.. وكلها تدور في فلك الفانيليا.. حتى استقرت منذ ما يقرب من خمسة عشر عامًا على استخدام الزجاجة البرتقالية.. لا أحد يعلم.. لا أحد إالا.. خالد!!

انتفضت في عنف.. وصعدت مسرعة إلى الأعلى.. جلست مكانها لدقائق حتى اتصل بها رامي والقلق باديًا على صوته:

- انتِ كويسة؟

بشرودٍ أجابته..

- اه.. كويسة..

- مالك؟

صمتت قليلًا.. ثم أخبرته بالأمر.. فضحك مهدئًا إياها..

- ده أكيد معجب.. دي ضريبة الشهره يا ليلى..

لم تجب هي ولم تبتسم لدعابته.. فتابع بصوتٍ جاد:

- مالك بس يا ليلى؟

لم تجب.. فقد استحوذ عليها الرعب.. يبدو الأمر جنونيًا.. هل استجاب الله لندائها أمس؟! صوت رامي يأتي من بعيد:

- يا ليلى.. انتِ معايا؟

وكأنها ما عادت تنتمي لعالمنا.. أجابته بشرود عجيب:

- آه يا رامي.. تصبح على خير.

أغلقت الهاتف، وإن ظلَّت محدقة في الزجاجة بلا حراك.. أيُعقَل؟

***

استيقظ أشرف من نومه على رنات هاتفه المنتظمة، نظر إلى الساعة، تجاوزت الواحدة ظهرًا، سبَّ ولعنَ جميع من في البيت، كيف لهم أن يتركوه نائمًا لمثل هذا الوقت، اعتدل في جلسته والتقط الهاتف، " كريم" مخرج البرنامج.. "القناة ولعت ولا إيه؟" هكذا تمتم أشرف لنفسه، فلا مبرر لتلك الاتصالات المتتالية إلا في حالات الكوارث!!

أجاب وهو يتمنى ألا تكن هناك كارثة، سَعُل بقوة وكأنه ينشط أحباله الصوتيه للحديث بعد طول ثبات:

- عارف لو مش حاجه مهمة على كل الاتصالات دي، نهارك أسود..
- عرفت تفاصيل برنامج ليلى كلها..

اعتدل أشرف من فوره.. فلم يمضِ على طلبه تلك المعلومات سوى ساعات، يعتبر نفسه محظوظًا بوجود كريم معه، شبكة لا نهائية من العلاقات في جميع المحطات..

- احكي يا كريم..

أخبره كريم بالتفاصيل الكاملة للبرنامج بدايةً من العقد مرورًا بالإعداد بكل شيء، حكَّ أشرف رأسه وهو يغمغم:

- بقى ليلى تاخد كل الرقم ده، قولتلي مين المُعِد بتاعها؟ انا حاسس ان الاسم مش غريب!

وافقه كريم في الرأي، فرامي بالفعل كان يعمل معهم، وبدون مقدمات، ترك العمل، وسمع أقاويل عن هجرته إلى الخارج.. غير أنه فوجيء به يعمل معها، تعجب أشرف من تلك المعلومة، فالعكس هو الشائع.. فالجميع يتركون قنواتهم بحثًا عن فرصة للعمل معه.. لا العكس، شعر وكأن الأمر إهانة شخصية له، فاكتسى صوته بصرامة نابعة من شعوره بهدر كرامته:

- اتصل بيه تاني، عاوز اقعد معاه شخصيًا.

أغلق الهاتف، واستند برأسه على السرير، محدقًا في الفراغ.. اجتاحته مشاعر متضاربة، ليلى منافسته الوحيدة في الوسط، يتمنى أن تختفي من أمامه لتخلو له الساحة، ولكنه برغم هذا موقن أن وجودها في حلبة السباق هو ما يبقيه

حيًّا، متجددًا، وجودها يخدمه قبل أن يخدمها، فليلى تبعث الإثاره في عروقه، تحفظه من التحجر والتصلب، لو اختفت من الساحة وأصبح هو الملك المتوج فقط؛ لما بذل الجهد للحفاظ على الصدارة، كالسمك تمامًا، إذا ما بقي في حالة حركة دائمة؛ يكون له مذاق خاص، هكذا ليلى بالنسبة له، هي ما تحرك الدماء في جسده، مرقت صورتها في خياله.. تلك الابتسامة الجذابة والأعين الآسرة.. فابتسم..

حتى وإن اظهر للجميع شعور العداء لها.. ليكن صريحًا مع نفسه على الأقل.. ففي جانب خفي من عقله وروحه، يُكِنُّ لها شعورًا آخر.. معجب بها بلا ريب.. معجب بحرفيتها ومهنيتها، وعنادها وقوتها وأنوثتها..

ليلى هي نقيض زوجته.. وهي انعاكسه أيضًا.. هكذا يرى..

فاذا ما قارن _إن جازت المقارنة من الأساس_ بين كلتَيهما؛ فإن كفَّة ليلى ترجح بلا مشقة.. فإنچي لا تهتم إلا بالنميمة والنادي والشوبينج.. حتى عندما افتتحت بيزنس خاص بها.. استغلت علاقاته ونفوذه وماله.. بلا أدنى مشقة أو تعب..

أما ليلى.. فلها مذاق مختلف، هي من صنعت مجدها بيدها، شقت طريقها بمفردها، تذكره بشبابه تمامًا، لذا فمع كل ما يبديه تجاهها ظاهريًا، إلا أنه يكن لها احترامًا وحبًا في قلبه..

انتفض جسده عند الكلمه الأخيرة، حب.. هل يفعل حقًا؟! هل يريدها زوجة؟ أم عشيقة؟ أم فقط معجب بذكائها؟ هل لو كانت زوجته.. فهل سيقبل بها منافسته؟ قطعًا لا.

هو يعلم أن من مثلها تعجبه.. يثيره ذكاؤها وطموحها.. ولكنه لا يتزوجها، كعادة معظم الشرقيين، يُعجَب الرجل بالمرأة القوية الذكية فقط.. ولكنه يخشى الاقتراب منها، أو من دائرتها.. نجاحها دومًا يشعره بالنديَّة.. دائمًا ما تساءل كيف لزوجها أن يتقبل مثل تلك الحياة!! أن يشار إليه ويُقال: "هذا هو زوج ليلى" يبدو أنه كان عظيمًا للدرجة التي تأقلم فيها مع نجاحها وازدهارها..

آه يا ليلى.. كل تلك الأفكار تضطرب بداخلي فقط بسببك، مزعجة أنتِ يا ليلتي، لتبقي كما أنت، لتبقي إذن كالسمكة، تلك التي تحرك المياه الراكدة فقط دون أن يصطادها أحد.

***

فتحت ليلى عينها وظلت محدقة في سقف الغرفة للحظات.. تحاول استيعاب ما مر بها.. أتلك الزجاجة حقيقة أم حلم؟! نهضت مسرعة فوجدتها ملقاة في ركنٍ قصيٍ بداخل صندوقها..

تملَّكها القلق ثانيةً.. وإن حاولت التظاهر بلا شيء، والاقتناع بأن الأمر مصادفة ليس إلا..

اغتسلت وارتدت ثيابها وذهبت إلى الجيم.. للمرة الأولى منذ الحادث المشئوم، تبادلت تحيات مع الجميع مهنئين إياها بالعودة لحياتها.. وإن اكتفت بإيماءة من رأسها دون حديث.. لحظات وأقبلت نور تجاهها هي الأخرى.. انتظرتها ريثما تبدل ثيابها.. ثم سارت بمحاذاتها وهي شاردة.. استوقفتها نور متسائلة:

– مالك؟ انتِ مش طبيعية؟

هزت رأسها بالنفي فتساءلت نور ثانية، فحكت لها ليلى ما حدث بالأمس..

بقى هو ده اللي موترك كده؟ عادي يا ليلى.. يمكن معجب وجت معاه بالصدفة.. بتحصل والله ماتشغليش بالك..

– إنتي هتعملي زي رامي!!

نظرت إليها نور بابتسامة ساخرة:

– رامي تاني؟ لا لا الموضوع كده بيتطور.. احنا نقعد كده ونشرب اتنين قهوة وتحكيلي.

هزت ليلى رأسها بلا رد.. وإن ظل السؤال يؤرقها.. هل الأمر فعلًا مصادفة؟!

***

عادت نور إلى منزلها بجسد تعمدت إنهاكه في الجيم، حتى يستجيب لرغبتها في الراحة والنوم.. ألقت بنفسها على أقرب كرسي أمامها، بدا لها أن عقلها هو ما يحتاج إلى الراحة وليس ذلك الجسد، فهو لا يتوقف عن التفكير أبدًا، حتى ليخيل لها أنه أثناء نومها يثقلها بهواجسه، فلم تنم منذ مدة قريرة العين أبدًا.

ولكن.. لمَ تشغل بالها بأمر لا يتعلق بها؟ فما يسيطر عليها الآن هو رامي.. ذلك المقتحم لحياة ليلى بلا تردد.. لمَ تهتم بالأمر؟ ألا يكفيها أن ليلى عادت ثانية إلى الحياة؟ أم أن.. لا لا.. لا يمكن؟

وبرغم إزاحتها لذلك الهاجس ومواراته ومحاولة وأدِه في مهده، إلا أنه طفا ثانية على السطح.. فالأمر يؤرقها كأنثى.. إن ليلى محط الأنظار دومًا، برغم أنها تفوقها جمالًا، لكن ليلى تخطف القلوب والأبصار على حدٍ سواء بلا أدنى مشقة.. تتسلل إلى القلوب ببساطة شديدة، حتى أنها تسللت إليها هي شخصيًا وأضحت صديقتها المقربة!!

نفضت نور عن رأسها ذلك الهاجس الغريب، كيف له من الأساس أن يمرق ببالها، هي تحب ليلى، تعتبرها شقيقتها، عاد الصوت من داخلها يرتفع ثانية، أليس قابيل أخو هابيل؟

وضعت رأسها بين كلتا يديها، وضغطت عليها بقوة وكأنها تمنع الأفكار من احتلال كامل عقلها، كأنها تقتلها في المهد.. أي هراءٍ هذا! "كفى".. صرخت بها بقوة، صرخت وكأنها تمنع تلك الذكريات من الطفو ثانيةً، تلك التي جاهدت لوأدها في بقعة منسية في مخها.. نهضت من مكانها متثاقلة، ووضعت رأسها تحت الماء، علَّها تهدأ من غلياناها قليلًا.

***

هناك.. في ذلك القبر البعيد، كان أحدهم يجثو على ركبتيه باكيًا، مازال يأتي كعادته كل أسبوع، يروي الزرع، ويجلس قرابة الساعة، يحكي لمن واراها الثرى كل شيء، غير أنه في ذلك اليوم لم يفعل شيئًا سوى البكاء، ارتفع نحيبه، وبللت دموعه قبرها، استند بيده عليه وبصوت مختنق وكأنها معه:

– سامحيني يا هبة، أنا السبب، بس انا مش قادر اعيش من غيرك..

تقفز صورتها إلى مخيلته، يسمع ضحكاتها، يشعر بلمسة يدها، ينتفض في عنف، ويبكي، يضع يده على قبرها، كأنه يود أن يلمسها، يخيل إليه أنها تراهُ من أعلى، تسبه وتلعنه، تكرهه، يبتعد وكأن ثعبانًا لدغه، يعتدل وينظر تجاه القبر بنظرة توسل ورجاء، وكأنها ستجيبه:

- انا اللي مَوّتِك يا حبيبتي، ماكنتش اقصد والله، سامحيني، لأني مش قادر اسامح نفسي أبدًا.

ينهار في البكاء ثانية، كفاه تظاهرًا بالقوة، عام كامل يقاوم الانهيار، ولكن اليوم هو يوم ميلادها، للعام الثاني بمفرده، يكره نفسه ويكره الظروف، هل الحب جريمة؟ ربما جريمته الوحيدة التسرع، لا ليست الوحيدة، أخطأ ثانية عندما طلب منها التخلص من الجنين، كان سيتزوجها، كان سيفعل.. ولكن القدر لم يكن رحيمًا به أبدًا، أنهت حياتها بيدها، بسببه.. هو من قتلها.. انهمر الدمع من عينه غزيرًا، لا يعلم كم مر من الوقت، لا يعلم غير أن الدموع تحجرت في عينيه، حتى كاد أن يبكي دمًا بدل الدموع، لم ينتبه إلا عندما وضع أحدهم يده على كتفه، التفت إليه، بفزع.. لا يتحمل أي لمسة.. كان "التُرَبي"

- متخافش، استهدى بالله.

نظر إليه وقد بلغ الوهن منه، فتابع العجوز:

- قوم يا ابني، ادعيلها بالرحمة، دموعك مش هتفيد.

جذبه من يده برفق، فاستند الآخر عليه، وتابع العجوز:

- انت عارف انا بقالي ٤٠ سنه تُربي، دايمًا الناس بتيجي للميت أول كام يوم، وبعدين أسبوع، وبعد كده في الأعياد بس، انت الوحيد يا ابني اللي بشوفك كل أسبوع في نفس المكان، عمرك ما غبت!

لم يستطع الرد، كيف يخبره أنه لو استطاع لما غادر قط، كيف يمكن أن يشرح له أن من تستقر تحت الثرى هي قطعة من روحه..

- كنت بتحبها؟

اومأ برأسه، فتابع الآخر:

- مش دي اللي انتحرت؟ ربنا يرحمنا يارب جميعًا.

اومأ له الشاب، وجفف دموعه بيده، وغادر في صمت!

***

كان أشرف يجلس خلف مكتبه ممسكًا بالسيجار، وهو ينهي محادثة بدأ فيها متمالكًا رباطة جأشه بالكاد:

- يعني إيه مش عاوز ترجع من بره؟ هو انا سفَّرتك وعلمتك بره علشان تقوللي مش راجع! يا ابني انا كبرت وعاوزك جنبي.

يستمع إلى محدثه في ضيق، ويعلو صوته مقاطعًا إياه:

– إن شالله عنك ما رجعت، ابقى شوف مين هيبعتلك الفلوس اللي بتصرفها كل شهر بقى..

أغلق الهاتف في عنف.. أمال رأسه إلى الوراء قليلًا.. تنهد تنهيدة عميقة وكأنه يهدئ بها أعصابه.. أمسك بصورة موضوعة أمامه على المكتب.. تطلع إليها والألم يعتصره، صورة تجمعه بابنه الوحيد، نقطة ضعفه الوحيدة ومصدر ألمه، لو أدرك أن ابنه سيصير مثل الشوكة في ظهره؛ ما أنجبه أبدًا.. عاش عمره بلا نقاط ضعف، حتى أتى يوسف إلى الدنيا.. لا ينسى أبدًا مشاعره لحظة أن أصبح أبًا.. من اللحظات التي حُفِرت بقلبه.. يذكر كيف بكى بلا سبب وهو يحمل بين يديه من هو أغلى من عمره.. مشاعره لحظتها كانت كالفيضان.. إلى الآن لا يفهم كُنه الرابط بينه وبين ابنه.. يحبه أكثر من نفسه.. منذ أن وقعت عيناه عليه أدرك أن الدنيا بأسرها لا تساوي نظرة إلى وجهه الصبوح.

أحاطه بحبٍ وحنان افتقده هو كثيرًا في طفولته، كبر الصغير محاطًا بحب وعناية فائقَين، زادهما عدم وجود أشقاء له.. تحمل أشرف إنچي بأرستقراطيتها المتعجرفة وسارت حياتهم روتينية مملة، لا يربطهما إلا يوسف، وعندما سافر للدراسة خارجًا؛ انقطع الحبل الموصول بينهما، فصارت حياتهم جليدية، غير أنهما احتفظا بها من أجل البرستيج، كانت إنچي تتفاخر بأن ابنها يدرس خارج البلاد، وسيعود بفكر جديد ليحدث طفرة، وها هو الآن يحطم أحلام

كليهما برفضه العودة مجددًا، حجته هي رغبته في تحقيق كيانه بعيدًا عن اسم والده أو نفوذ أمه، يريد صنع كيان وحياة خاصة به، يريد أن يبدأ من الصفر..

الصفر؟ أي صفر يا أحمق، أهدي لك كل شيء على طبق من ذهب، فتخبرني بشعارات جوفاء، عن تحقيق الذات، أنا حققت لك ولأحفادك من بعدك تاريخًا يكفيهم، سيتباهى به حتى نسلك الرابع، أتترك كل هذا وتقذفه وراءك؟ تاريخ أشرف جميل ينسحق.. يطويه النسيان.. امبراطوريته تتهاوى من بعده، لا لن يسمح بهذا أبدًا.. قطع تفكيره صوت السكرتيرة، ينبعث من "الاسبيكر" بجواره..

- أنا آسفه يا افندم.. بس كريم هنا.

- خليه يدخل.

دخل كريم إليه والقلق يكسوه، فبادره بصوتٍ ساخر:

- قول انت كمان وراك إيه.. ما اليوم باين من أوله!

حكَّ كريم أنفه وأطرق أرضًا.. جلس أمامه وبصوت خفيض:

- أنا ماعرفتش اجيب رقم رامي، تقريبًا غيَّر رقمه، ومش مع حد خالص.

رمقه أشرف بسخرية، وبابتسامة هازئة تابع:

- وجاي تفرحني بالخيبة!! إمشي يا كريم.. إمشي انا مش طايق نفسي.
- أنا بس كنت باقولك..
- إمشي دلوقتي، أنا مش عاوز اسمع حاجة.

غادر كريم مسرعًا.. في حين بقي أشرف وحيدًا مع أفكاره.. وجد نفسه لا إراديًا يستعيد حياته منذ بدايتها، صحفي مغمور.. لا أحد يسمع عنه أو يعرفه، غير أنه كان طموحًا وشديد الذكاء، في وقت قصير كوَّن علاقاتٍ وصلاتٍ برجال الدولة، حتى التقى إنچي مصادفةً في مناسبة جمعتهم، كان هو معنيًا بتغطية وقائع ذلك الحدث الجلل، وهي كانت من ضمن الحضور.. سحرته بأناقتها وجمالها، ولفت هو نظرها بخفة ظله المشهورة، تقرَّب منها ولم تمانع هي، ولم يمانع والدها أيضًا.. السياسي المحنَّك قرأ المستقبل.. أدرك أن الغد سيصير ملكًا له، فساعده بعلاقاته، وشقَّ هو طريقه بسهولة ويسر.. ساعده ذكاؤه الحاد على التأقلم، بل والاندماج سريعًا، وأعادت إنچي تشكيله، كان لينًا طيّعًا في يدها، علمته أصول الإتيكيت، واللغة الفرنسية التي تتقنها أكثر من إتقانها العربية.. اصطحبته في جولات أوروبية لكبرى بيوت الأزياء، إنچي هي من صنعته.. لا ينكر هذا.. أزالت طبقات من الغبار عن روحه ونفسه، غير أنه لم يدرك أن هذا الغبار هو حقيقته.. هو

أصله وروحه.. تركها تصقله وتزيل تلك الطبقات حتى وصلت إلى ما بدا لها وكأنه الجوهر البراق.. غير أنه كان زائفًا.. فقد أزال روحه معه.. لو عاد به الزمن لما فعل.. لاختار وفضَّل نفسه بطبقات الغبار تلك.. بأصله وروحه الحقيقية.. لو عاد به الزمن ما تزوجها وما اقترب منها منذ البداية.. بل كان سيختار فتاة عادية تنتمي لطبقته الاجتماعية.. فتاة يسعد بصحبتها.. تنظر إليه وكأنه كل انتصاراتها.. إنچي إلى الآن وبرغم مركزه الاجتماعي ونفوذه؛ تنظر إليه نظرة طبقية.. وكأنها تفضَّلت عليه بموافقتها الزواج منه.. ربما لهذا انجذب لهاجر.. بسيطة، مرحة، تحبه ، يشعر معها وكأنه الرجل الوحيد على الأرض.

أنثى حقيقية.. يشعر وكأنه منها وكأنها منه.. لا فرق بينهما سوى عقدين من الزمان، أحبَّته بصدق.. أحيَت قلبه ثانيةً من بين الركام.. ولكنه خذلها، خذلها عندما ترك الألسنه تلوك اسمها.. عندما لم يهِبّ للزود عنها.. خاف على اسمه، على تاريخه، كان أجبن من أن يقاوم الطوفان ويعلن حبه للجميع إثر الانسحاب، فاختفت هي من حياته بلا رجعة.. الذنب ليس ذنبه وليس ذنبها قطعًا.. هم ضحايا لحسابات الدنيا المعقدة.. ودَّ لو التقاها مرة أخيرة.. وحيدة، يطلب منها الصفح..

رنين الهاتف انتزعه من شروده، اعتدل في جلسته.. فالاسم الذي ظهر أمامه ليس بسيطًا، اسم ترتجف له القلوب.. فتنحنح، وارتدى قناع الجد ثانية، وأزاح مشاعره في ذلك الركن الخفي بداخله.

***

يشعر بقلبه ينزف داخله، ما أصعب كتمان ما نحن بحاجة إلى قوله أحيانًا، الكتمان موجع، مؤلم.. التظاهر بعدم الاكتراث يقتل، هو أسير للعنة أزلية، لعنة لا تعترف بالحدود، ولا الزمان ولا المكان، لعنه تتجاوز المنطق والمعقول والممكن.. هو أسير العشق، من منَّا يملك مفاتيح قلبه؟ لو كان الأمر بيده لأمسك بخنجر واقتطع قلبه بيديه.. لو كان الأمر بيده لأراح نفسه من عذاب الحب.

ولكن من منا يملك قدَره، لو أدرك أن عينيها ستقتله منذ الوهلة الأولى، لما تردد أو تراجع، ولاختار الوقوع في شباكها بإرادته مرات ومرات.. فلو كان قدره الحب؛ فمرحبًا به.. ولو كان اختياره الحب، فلن يختار سواها، هي الأنثى الوحيدة على الأرض التي ملأت قلبه وعقله معًا، تلك التي أسرته فلم تستطع أنثى أخرى مزاحمتها، تلك التي استولت على قلبه منذ الوهلة الأولى ببساطة.. تلك التي يحبها، وسيظل.. ما دام قلبه ينبض.

***

كان رامي يجلس ساكنًا، ممسكًا بفنجان القهوة متطلعًا إلى المكان بشرود.. لم ينتبه إلي جماله رغم كلاسيكيته الواضحة ولم يلفت انتباهه أيضًا صوت فيروز الحالم.. إلا أن تلك الابتسامة كانت كفيلة باتنزاعه من شروده مرغمًا.. ابتسامة هادئة وشت بغمازاتين انحفرتا على جانبي وجهها.. بدت كطفلة صغيرة في جسد أنثى مكتمل النضوج.. تتحدث إلى الجالس بجوارها وجسدها بأكمله يضحك.. هي أنثى عاشقة.. بل غارقة في العشق.. لم يعرف كم مضى وهو في جلسته تلك إلا عندما أقبل تجاهه رفيقها متنحنحًا:

– أسف على الإزعاج.. بس ممكن تصورنا؟

أومأ له مبتسمًا، فأشار الآخر إلى رفيقته فأقبلت تسبقها ابتسامتها.. التقط رامي الهاتف من يده، واقتربت الفتاة من الشاب حد الالتصاق.. وابتسامتها تشي بسعادة حقيقية.. يتأمل ملامحهم عبر كاميرا الهاتف.. تلك الخصلة الهاربة من غطاء رأسها زادتها جمالًا.. وجه خالٍ من المساحيق تمامًا.. مع كل صورة يلتقطها.. يتأكد من إحساسه.. هذا الشاب لا يحبها.. بينما هي تفعل.. وبصدق!

للحب لمعة.. رائحة معينة تفوح في الأركان باعثة بهجة وطاقة.. للحب رائحة وضحكة مميزة، تلك التي تخرج من أعماقك وتحتل كيانك..

التقط لهم العديد من الصور.. تغيرت أماكن تصويرهم ووقفاتهم.. ولم تتغير ابتسامتها.

أنهى التقاط الصور لهم وناولهم الهاتف.. شكرته الفتاة بابتسامتها الآسرة.. وتأبطت ذراع رفيقها وغادرت.

تابعها ببصره حتى غابت.. يحاول نسج احتمالات.. إلا أنه نفض تلك الأفكار عن رأسه.. ماله هو ومال الآخرين، ليركز في مصيبته، هو مضطربٌ بلا ريب، مشاعره تجاه ليلى تبدلت، يخشى الأمر،

ولكن القدر دومًا يفاجئنا، والحب لا يستأذن أبدًا، أزاح هذا الأمر من رأسه، مؤقتًا، أنهى قهوته وغادر عائدًا إلى المنزل سيرًا على الأقدام والأفكار تتقاذف بداخله، التقط الهاتف وضغط زر الاتصال بليلى سريعًا

- ليلى، انتِ فاضية؟ تعالي نتغدى سوا.
- صوتَك مالُه؟
- لا مفيش، مزاجي مش حلو، نص ساعة وهاعدي عليكِ.

ألقى الهاتف بجواره، دون حتى أن يعطيها فرصة للرد، يشعر بالضيق، ربما لهذا اتصل بها، يحتاج إلى من يلقي بهمومه أمامه، يحتاج لمن يسمعه..حتى وإن لم

يساعده في إيجاد الحل.. هدأ قليلًا ونهض من مكانه إلى غرفته.. بدل ثيابه والتقط علبة من داخل دولابه.. وضعها في جيبه وغادر إلى ليلى.

***

تسمرت ليلى في مكانها لدقائق.. فقد عادت لتوها من الجيم.. ممسكة فقط بالهاتف، غير مستوعبة الأمر، فتلك العلاقة ليست طبيعية أبدًا، هل رامي يمثل لها شيئًا؟! لتعترف لنفسها ولو لمرة أنه أضحى مهمًّا في حياتها، وأنه وضَع بصمة خاصة بها، وأنه لا يعاملها _وكذلك هي_ من منطق الرئيس والمرؤوس، بل أنها أحيانًا تشعر أنها كطفلٍ صغير بجواره تتعلم منه الكثير، بدَّلت ليلى ثيابها، وارتدت ما يليق، أعادت ترتيب المنزل قليلًا، وانتظرته.. لم تمضِ دقائق إلا ووجدته أمامها، أشارت له بالدخول، فألقى بجسده على أقرب مقعد وكأنه يستريح من عناء يوم طويل.. شعرت بالشفقة عليه، وإن تخللتها بعض الدهشة.. فرامي يتعامل بأريحية شديدة، وكأنه كما يقال "البيت بيته" نظرت إليه مليًّا لا يبدو بخير، شكله يوحي بأنه قضى يومًا عصيبًا، لا تعلم كم مر من الوقت وهو بتلك الجلسة إلا أنه نظر إليها معتذرًا:

– أنا آسف يا ليلى والله، معرفش إيه اللي جابني هنا! بس ملقيتش حد اكلمه غيرك، انا مش عارف مالي، بس عارفة لما تحسي انك

متضايقة، متلخبطة، ومش عارفة ليه! عارفة لما تقولي مفيش، وانا كويسة علشان مش عارفة توصفي مالك.. أنا كده!!

تطلعت إليه بلا رد.. تعي جيدًا مقصده...تعلم أن كلمة لا شيء أنا بخير ما هي إلا ستار لأوجاع تنخر في أعماقنا بلا هوادة، ماهي إلا اختزال وربما عجز عن التعبير والتصريح بما يموج بداخلنا.. يا الله اللاشيء هذا موجع للغاية، نهض فجأة متابعًا بصوت خفيض:

– آسف اني دوشتك بمشاكلي، انتِ مالكيش ذنب، انا ماشي.

نظرت إليه غير مستوعبة الأمر، أمجنون هذا أم ماذا! أشارت إليه بيدها:

– انت مش قُلت هنتغدى سوا.. انت بخيل ولا إيه؟ اقعد.

ابتسم لها:

– بس انتِ مالكيش ذنب فعلًا تشوفيني بالمود ده.

– يا سلام! وهو احنا نعرف بعض بس في الوقت الحلو؟ بلاش كلام فارغ.. يالَّا بينا.

نظر تجاهها بامتنان حقيقي، اضطرابه يتزايد، تركته وصعدت لأعلى لدقائق، أكملت وضع زينتها، واختارت لوك بسيط.. فقط فستان نهاري أزرق، منقوش بورود ملونة صغيرة، متوسط الطول، وتعطرت.. وعلى ذكر العطر؛

التقطت زجاجة أمس.. همت بعرضها على رامي، غير أنها أرجأت الأمر لما بعد.. فحاله لا يسمح الآن..

نزلت إليه وغادر بصحبتها، وفي الطريق سألته: إلى أين؟ فأخبرها: إلى إحدى البواخر النيلية في الزمالك، ساد بينهما صمتٌ ثقيل، قطعته هي:

- احكيلي شوية عن نفسك يارامي، انا ماعرفش عنك كتير!
- انتِ عاوزة تعرفي إيه؟

تطلعت إليه مندهشة، كعادته.. سؤال بسؤال، ودون انتظار إجابتها استرسل في الحديث، أخبرها عن طفولته في المعادي، وعن والده، عن حياته خارج مصر لوقت بسيط، وعن معاناة والدته الأخيرة، وفقدانه لها بسبب إصابتها بالسرطان، وعن سفر أخته للعيش خارجًا وكيف أن الأمر يؤلمه، فصدَّقت هي على كلامه، وأخبَرَته أن شقيقتها الوحيدة هي الأخرى تعيش في الخارج، وأنها فقدت والدتها أيضًا قريبًا..

- تعرفي ان حياتنا متشابهة شوية!

نظر إليها والحزن مرتسم في عينيه الخضراوين.. يبدو محقًّا، تشابهت مصائرهم إلى حدٍّ كبير، ربما هذا هو التفسير الوحيد لانجذابهم بتلك السرعة، فالحزن.. أو ربما الاحتياج، وازع أقوى من الحب، للحزن نكهة لا يعرفها إلا من تذوقه، من اختبره وعاش فيه دهورًا، والحزن لا يولد إلا حُزنًا، ولا يجذب إلا

الحزن، ولكن.. رامي لا يبدو من تلك النوعية، بسخريته اللاذعة، واعتراضه على كل شيء، يبدو متفائلًا مفعمًا بالحيوية، ربما تلك المرة الأولى التي تلمحه هكذا، التي يفتح فيها خزائنه لها، ولكن من قال أن ما نظهره دومًا هو الحقيقة! فما نظهره ماهو إلا ستارٌ لندوبٍ لا تشفى، ربما تظاهرنا بالسعادة واللامبالاة طويلًا هو ما نحاول به التحايل على أنفسنا، هو ما يبقينا على قيد الحياة.. ربما سخريته الدائمة ما هي إلا محاولة للهروب من الواقع، نحن هكذا، نوهم أنفسنا أننا بخير، ربما لأننا لا نرغب في شفقة أو عطف من أحدهم، لأنه مهما كان الألم قويًا، مهما كانت الروح مشتتة وممزقة إربًا؛ كل هذا الألم لا يضاهي أبدًا نظرة شفقة من أحدهم "أفهمك يا رامي جيدًا، فأنا مثلك، أو أنك أنت مثلي، لا يهم صدقني" هكذا خاطبت نفسها، فتطلع إليها متسائلًا:

- انتِ قُلتي حاجة؟

هزت رأسها بالنفي، وشردت مع الطريق.. أو بالأحري هربت مع هواجسها إليه.. تمنت لو لم تلتقِ به أبدًا، هو مثاليٌ إلى حدٍ سخيف، مخيف، مرعب.. أحيانًا يكون القدر سخيًّا جدًا إلى حد السخرية، يضع في طريقك شخصًا يبدو كحُلم، كتعويض.. ولكن في توقيتٍ خاطئ، أم أن هذا هو التوقيت المناسب؟ ربما لو التقته منذ عام لم تكن لتعيره أدنى اهتمام، ربما تراه شيئًا

خارقًا على غير حقيقته، نظرًا لدوره في تغيير حياتها، ربما ما تشعر به ليس أكثر من امتنان، واحتياجها وضعفها هو ما يؤجج تلك التساؤلات والحيرة بداخلها، هي ممتنة لا أكثر ولا أقل، وما تفعله الآن هو نوع من رد الجميل، هذا ما حدثت نفسها به.. بل وحاولت إقناعها أيضًا، انتفض جسدها عندما أمسك بيدها:

- سرحتي في إيه تاني يا ليلى؟

تطلعت إلى يده الممسكة بيدها غير مستوعبة الأمر، وسحبتها مسرعة، متمتمة:

- لا ولا حاجة.

ابتسم مشيرًا لها بيده:

- طيب يالَّا انزلي، احنا وصلنا.

استغرقت في شرودها كليةً للدرجة التي لم تنتبه فيها إلى المسافة، ترك هو مفاتيح سيارته للسايس، واجتاز بصحبتها سلمًا خشبيًا امتد من أول الرصيف إلى باب المركب العائم، وتحته بدت صفحة المياه رائقة، اجتازت بوابة إلكترونية، وأصرَّ رجال الأمن على التقاط صورة بصحبتها، فالتقط رامي هاتف أحدهم، والتقط العديد من الصور.. في حين عرَّفَتهم ليلى به بأنَّه معد البرنامج، تدرأ أي شبهة مُحتمَلة، صعدت معه بضع درجات حتى دخلت إلى

المطعم، مفروش بالسجاد من أوله إلى آخره، وتراصت الطاولات الدائرية متباعده، لتمنح للجالسين خصوصية، ارتاحت لذلك المكان، خاصةً عندما تسربت إلى مسامعها موسيقى أغنيتها الفرنسية المفضلة "لا في إن روز" اختارت هي طاولة في ركنٍ منزوٍ وجلست بحيث كان وجهها للنيل، وظهرها للباب، أراحت قسمات وجهها، تبذل جهدًا مضاعفًا للحفاظ على تلك الابتسامة مهما كلفها الأمر من جهد، ومهما اعتمل بداخلها من اضطرابات، الصمت هو سيد الموقف كلاهما يشعر بالخجل، وكأنهم في موعد غرامي أو ما شابه، فالأجواء جميعها توحي بهذا، وزاده خجلها، وتورد وجنتيها، حتى نظراته بدت حالمة.. فتنحنحت وكأنها تسحب نفسها من جنة أحلامها:

- بس المكان حلو، أول مرة ادخله.
- سيبي نفسك بس وثقي فيا.

ودَّت لو أخبرته أنها ما عادت ترتاح أو تثق في غيره، وإن أثقلها هذا الأمر، فهو بالفعل أصبح منطقة راحتها، مجرد وجوده حولها يبث فيها الأمان والدفء وكأنها تلوذ وتحتمي به من أي شيء، بدا لها كخالد.. انتفض قلبها في عنف، وانتفضت هي معه.. بالأمس القريب كانت تبكي خالد.. تبكي شوقها ووحدتها.. تشتاقه.. والآن تنظر إلى غيره ضاحكة حالمة! أي جنون هذا! أي عبث يا ليلى!

اشتعلت الافكار بداخلها حتى كادت تحرقها.. رامي يتسلل بداخلها بوداعة، وكأنها ما التقته منذ مدة قصيرة أبدًا.. يتغلل بداخلها.. يسيطر عليها.. يستحوذ على تفكيرها.. أيعقل هذا الأمر؟ أيعقل أن يمتلك أحدهم مفاتيحها بتلك السهولة! أي هراءٍ هذا؟!

أنقذها النادل من أفكارها، حيَّاها بإيماءة من رأسه، فبادلته التحية بهدوء، ناول كليهما قائمة الطعام، فأمعنت النظر فيها هربًا من الوضع برمته، لحظات وعاد ثانيةً، فطلب كل منهما ما يشتهيه، غلفهم الصمت للحظات إلى أن قطعه هو:

– أقولك حاجة؟ "ابحث عن روح تشبهك، القلوب تتغير"

لم تستوعب الجملة فشرح هو مقصده، أن لقاء الأرواح وامتزاجها، هو الأساس.. هو الأهم، أهم حتى من الحب، فالقلب متقلب.. أما الروح فدائمة.

أخبرها أيضًا بأسطورة قديمة، تقول أن الله حين خلق الجميع، خلقنا أزواجًا، ثم انشطرت الأزواج إلى فرادى، وهامَ كل جزءٍ يبحث عن نصفه.

ومحظوظٌ فقط من يجد رفيق روحه أو نصفه الهائم، لذا فهو يؤمن برفقاء الروح، وأن لكل إنسان روحٌ واحدة فقط خُلقت من أجله.. وهذا ما يفسر التنافر والتآلف من أول وهلة.

كانت ليلى تنظر إليه بغير تصديق، وكأنه يجيب عن أفكارها.. وكأنه قرأها.. أيعقل أنه توغل بداخلها للدرجة التي اضطلع على هواجسها بتلك الدقة.

لم تتخيل أبدًا أنه يفكر بمثل تلك الطريقة أو ذلك الأسلوب، يتحدث بنبرة مختلفة، نبرة تخفي وراءها قلبًا كسيرًا، فلم تجد بُدًّا من مزاحه:

– انت بتحب ولا إيه يارامي؟

تطلع إليها والأسى مرتسمٌ في عينيه، وبصوتٍ متهدج وأنفاس مضطربة أخبرها أنه ما ذاق الحب إلا مرة وحيدة، غير أن مرض والدته كان عائقًا للاستمرار..

لم يزد هو ولم تسأل هي، وإن انتقل حزنه إليها، فتنهدت بحزن:

– أنا آسفه، أنا عارفه اننا ما بنصدق نعدي.. وعارفه صعوبة الموضوع أوي.

نظر إليها دون رد.. وإن أطال النظر في عينيها.. فأشاحت بوجهها بعيدًا وكأنها تهرب من تلك الأعين الثاقبة، النافذة إلى داخلها مباشرة.. ولم يكتفِ هو بذلك..

– ليلى..

التفتت إليه.. فإذ به يناولها علبة صغيرة.. نظرت إليها مستفهمة وهمت بفتحها.. فاستوقفها بإشارة من يده:

– افتحيها وانتِ لوحدك.

على مضض، وضعتها في حقيبتها والفضول يلتهمها.. مر بهم الوقت سريعًا في أحاديث وضحكات.. غير أن القدر دومًا ما يتعمد مفاجأتها والانتقاص من فرحتها.. ففي تلك اللحظة سمعت صوت من خلفها.. انتفض له جسدها في عنف:

– ليلى.. إيه الصدفة الحلوة دي، معرفش انك بتيجي هنا!

"هذا ما كان ينقصها" هكذا خاطبت نفسها، فصوت "أشرف" بدا ساخرًا وكأنه ضبطها في وضعٍ مشين، رسمت تلك الابتسامة على وجهها، واستدارت متثاقلة لتحيته:

– إزيك يا أشرف، أخبارك إيه؟

ضغط على يدها بخفة، فسحبتها هي، نقل بصره بينها وبين رامي في نظرة لم ترتَح لها، ثم وجَّه كلامه لرامي:

– رامي..

لم يُزِد عن تلك الكلمة، وإن نطقَها بلهجة لم تستسِغها ليلى أبدًا، نظراته لها بدت غامضة غريبة، حين تابع وهو يلوح بيده معتذرًا:

– أنا آسف لو قطعت كلامكوا، اتفضلوا.

بنظره تحدٍ وبنبرة قوية أجابه رامي:

– لا يا افندم، احنا أصلًا كنا ماشيين.. مبسوطين اننا قابلناك.

ابتسم أشرف ابتسامة ساخرة غامضة موجهًا كلامه لليلى:

– بالمناسبة.. حلو لون شعرك.

رمقته بنظرة نارية، وغاردت بصحبة رامي، في حين ظلَّ أشرف يتابعهما في صمت.

***

على النقيض من ليلى، لم يكن أشرف يتعامل مع الجميع ببساطة وأريحية، الغريب أنه لم يكن يتصنع، أصبحت عجرفته جزءًا منه، أشعل سيجاره ونفث دخانه متقطعًا في الهواء وابتسم ساخرًا، ليلى ورامي، لم يكن ليلمحهما في ركنهم المنزوِ هذا، إلا عندما ظنَّ العاملون أنه يبحث عنهما.. ابتسم عندما تذكر كيف انسحب الدم هربًا من وجهها، مفارقة ساخرة من مفارقات الأقدار.. صباحًا يسمع تقريعًا من صاحب القناة بسببها.. أن عودتها تسحب البساط من تحت أقدامه.. الإعلانات تذهب إليها ثانية.. حاول أشرف الاحتماء باسمه وتاريخه.. ولكن.. ليحترق تاريخه بأسره، فالإعلانات أهم.. والآن يلقاها في موعد بدا له غراميًا، اتضحت الصورة إذن.. لهذا تركه رامي.. لأجل عيونها.

ومع انتهاء سيجارُه.. تجاوز ليلى تمامًا، فما يشغله الآن يفوق ألف ليلى.. فهي لا تستحق كل هذا الحيز من التفكير أبدًا.

بعد ثلاثة فناجين من القهوة، أقبل ضيفه أخيرًا.. وبعجرفة تتضاءل بجوارها عجرفة أشرف.. حيَّاه، كان ذلك البرلماني المخضرم هو من فاجأ أشرف بالاتصال صبيحة اليوم.. في حديثٍ مقتضب لم يزِد عن دقيقتين.. طلب منه لقاءه في هذا المكان، ولم يناقش أشرف أو يسأل عن سبب طلبه للمقابلة.. وإن التهَمَه القلق!

جلس البرلماني أمامه واضعًا ساقًا فوق الأخرى، يتلذذ بتدخين سيجارَهُ هو الآخر.. أقبل الجميع تجاهه، في محاولة لخدمته ونيل رضاه.. أشار إليهم بيده بالانصراف وإحضار فنجانٍ من القهوة.

أشرف يتطلع إليه بترقب وإن لم يجرؤ على البدء في الحديث، وبينما يرتشف فنجانه، وإدراكه أن صبر أشرف قد نفذ، ألقى ما في جعبته بهدوء:

- قولّلي يا أشرف..

بتَر جملته بلا داعٍ متطلعًا لأشرف الذي اعتدل تجاهه والفضول يكاد يقتله.. فتابع هو بهدوء:

- هو انت مش شايف سلبيات في البلد؟ مش شايف ان فيه مثلًا رجل أعمال بيتجاوز القوانين؟ مش شايف بعض الوزراء مالهومش لازمة؟ شايف الدنيا وردي يعني؟!

تحوَّل وجه أشرف إلى علامة استفهام كبيرة، فشرح له هو مقصده..

أشرف يُصنَّف على أنه رجلهم الأوحد، رجل الحكومة كما يُشاع دومًا.. ولكن ماذا لو بدأ هجومًا على بعض رجال الدولة.. أسماء لها وزنها وثقلها، ولكن.. حاون وقت قطافها.. ليكن إذن بيد أشرف!

سيكتسب مصداقية عند رجل الشارع، هم لا يريدون تصنيفه كرجل النظام، يريدون أن تنحاز إليه الأغلبية وتثق به.

– فهمت يا أشرف؟

ابتسم له أشرف، والتمعت عيناه، فما حدث الآن يؤكد بما لا يدع مجالًا للشك، أنه مازال هو الملك، هو المتصدر.

ليحترق المعلنين والإعلانات، فهو رجل النظام الأول والأوحد، أراح جسده على الكرسي، وأشعل سيجاره هو الآخر، وأومأ برأسه إلى البرلماني:

– مفهوم يا افندم..

وأخذ يدخن سيجاره باستمتاع شديد.

***

ساد صمتٌ مطبق بين ليلى ورامي طوال الطريق، تجنبت حتى النظر إليه، وكلما تذكرت نظرات أشرف الهازئة شعرت بالنار تستعر في جسدها، لماذا دومًا فرحتها منقوصة؟ لماذا لا يكتمل يومها أبدًا على خير؟ ما السيء بها؟

تنهدت في أسى والتصقت أكثر بالباب، وفتحت النافذة المجاورة لها قليلًا.. لعل الهواء البارد يهدئ من اللهيب المستعر بداخلها.

تنفست في ارتياح عندما وجدت نفسها أسفل منزلها، أمسكت بحقيبتها وهمَّت بالمغادرة فاستوقفها رامي.. رأى انعكاس القمر على وجهها فبدا له شحوبها جليًّا فتساءل:

– ليلى.. مالك؟

لم تُجِب، فقط هزت رأسها بالنفي، أدرك أنها تخشى من الأقاويل، فتابع:

– أنا آسف، ماكُنتش اقصد فعلًا اني اتسببلك في الضيق ده، بس انا كنت محتاجلك.

لم تُجِب.. فقط صمت لا يقطعه سوى أنفاسهما المضطربة، التقط يدها بين يديه، فسحبتها ببطء، وأشاحت بوجهها هربًا من أعين اخترقتها بلا هوادة، وتسارعت دقات قلبها بقوة حتى ظنت أنها مسموعة، فتحت الباب فاستوقفها بضغطة أقوى من يده، فالتفتت إليه فأكمل:

– انتِ ماتعرفيش الوقت ده فرق معايا ازاي، شكرًا انك في حياتي.

نظرت إليه بأنفاسٍ مبهورة، وسحبت يدها من بين يديه، فتحت الباب مسرعة، فمازحها:

– استني، زي ما استلمتك من الباب هاوصلك للباب.

سار بمحاذاتها وإن تلامست أيديهما على غير تعمد، فابتعدت هي قليلًا، وأمام الباب كان هناك صندوق آخر موضوع أرضًا، انحنى رامي لالتقاطة، انتزعته هي بلهفة من بين يديه..

ولم تستطع الانتظار ريثما تدخل، إذ أسندته على يد.. وبالأخرى فضَّت الغلاف، ارتفع حاجباها في دهشة حتي كادا أن يرتطما بمنابت الشعر، وأغلقت الصندوق مسرعة، فالتقطه هو من بين يديها وفتحه.. كانت الدهشة من نصيبه هو تلك المرة، فبداخل الصندوق قبع رداءٌ أزرق حريري مشغول في أطرافه بالدانتيل!!

فتحت الباب وخطت إلى الداخل وألقت بجسدها المنهك على أول كرسي صادفها، وهو يتبعها، أغلق الباب وراءه والتقط القميص من الصندوق، فلمح ورقه معلقه به، انتزعها منه وقرأ ما بها فلم يفهم، فناولها إياها، وما أن لمحت ما بها حتى تراجعت في مكانها مصعوقة مرددة فقط:

- مستحيل.. مستحيل!!

***

ارتفع نحيب نور وبدت متوسلة وهي بالكاد تستطيع الحديث:

- يا ماما خلاص.. أرجوكي سامحيني، فات كتير.. انسي بقى!

لم تشفع لها توسلاتها أبدًا.. لم يرق قلب أمها لها، رفضتها، لم تنسَ لها أبدًا أنها حرمتها من فرحتها كأم بزواج وحيدتها.. رغم توسلات نور بالغفران والصفح واعترافها بخطئها.. إلا أن الجميع رفضها.. حتى والدتها.

أنهت معها أمها المكالمة وإن خلَّفت بداخلها ندبة أخرى.. وأضافت فوق الوجع أوجاعًا.. أما يكفيها أن ابنتها بالفعل ممزقة، كسيرة.. ألا يكفيها أنها وحيدة!

من منا بلا أخطاء.. عوقِبت بما يكفيها وعاقَبت هي نفسها مرارًا.. لمَ التجاهل، لم القسوة.. هي ابنتها حتى وإن أخطأت.

أفرغت انفعالاتها كاملة في البكاء، حتى هدأت قليلًا.. نهضت من مكانها، فتحت دولابها متطلعة إلى بيجاما حريرية استقرت بداخله، وكأنها تبحث عن سند خيالي، حتى لو تمثَّلَ لها في تلك البيجاما.. وبرغم ما صار والأذي الذي حاق بها، مازالت تفتقده، أمسكت البيجاما بين يديها، وجلست أرضًا محتضنةً إياها.. رائحته مازالت عالقة بها، صحيح أنه نبذها وهجرها، بل والأكثر وجعًا وهدرًا لكرامتها كأنثى أنه اعتبرها نزوة، رغم أنها اعتبرته حياة.. لكنها تشتاقه.

لم تعلم ماذا تفعل.. حاولت النسيان، تخلصت من كل شيء يربطها به، إلا تلك البيجاما، لم تستطع أبدًا التخلص منها.. تحمل إليها ذكريات لا تريد محوها، وسلسله ذهبية مستقرة في درج مكتبها!

نهضت مسرعة تفتش عنها.. حتى وجدتها قابعة في نفس مكانها، أمسكت بتلك العلبة المخملية، والتقطت السلسلة المستقرة بداخلها.. تذكرت يوم أن أهداها إياها.. ورغمًا عنها انهمرت دموعها ثانية، فجلست أرضًا محتضنة إياها وذكرياتها تقتحم أسوار عقلها عنوة.

***

ظلت ليلى على صمتها، وإن أخذ جسدها في الارتعاش قليلًا.. اقترب منها رامي مهدئًا:

– فيه إيه؟ ممكن أفهم؟

هزت رأسها بلا رد والذهول يغمرها.. فكرر سؤاله.. وبصوت مختنق أجابته:

– خالد..

لم تستطع إنهاء جملتها حيث انهارت في البكاء.. فلم يعلم ماذا يفعل.. ربت على كتفها محاولًا تهدئتها قليلًا.. فتابعت هي:

– خالد.. عايش!!

غلَّفهم الصمت للحظات إلى أن قطعه نحيبها ثانية.. فجلس أرضًا أمامها ناظرًا في عينيها:

- ممكن تهدي.. خالد إيه بس يا ليلى!!

أشارت إلى الورقة.. فالتقطها من بين يديها.. نظر إلى المكتوب.. "وحشتنيني يا ليلو" فتطلع إليها متسائلًا:

- مالها؟

- ده إسم محدش يعرفه غير خالد.. وكمان القميص ده مقاسي.. وقبل كده البارفان برضو محدش يعرفه غيره..

لم تستطع إكمال جملتها، إذ انهارت في البكاء.. فاحتضنها بين ذراعيه.. مسح على شعرها بهدوء علَّها تهدأ:

- طيب ممكن تهدي.. دي كلها صدف يا ليلى.

ابتعدت عنه.. وتطلعت إليه باستنكار:

- يا سلام!! صدفة.. صدفة ازاي يعني وفيه حاجات محدش يعرفها غيرنا؟!

- طيب بالعقل كده، هو لو عايش مش هيظهر ليه؟ وبعدين يا ليلى الطيارة كلها وقعت.

- أنا مالقيتش الجثة.. ما يمكن مركبش الطيارة!

- كنتي هتعرفي لو مركبش، فات أكتر من سنة، استهدي بالله كده، مفيش حاجة من الخيالات دي.

صمت قليلًا ثم أردف بتردد:

- طيب ينفع أسألك سؤال خاص؟

أومأت برأسها فتابع:

- كان بيحبك؟

أومأت بالإيجاب، فأكمل:

- طيب يا ليلى.. بيحبك وهيختفي من حياتك سنة ويرجع يبعتلك هدايا؟ ده منطق برضو؟!

جفف دموعها بيده ورفع وجهها متطلعًا إلى عينيها مباشرة:

- يعني انا ابقى متجوز القمر دي، وابعد عنها سنة، ده منطق!!

لم تبتسم لدعابته.. كانت بالفعل مضطربة خائفة.. موقنة أنه خالد.. حتى لو حاول رامي إقناعها بالعكس، حدسها ينبئها بهذا، هو حي، من يكترث لإرسال هدية لها في يوم ميلادها إلا هو.. من يعلم بما تحب وتفضل سواه.. هو حيٌ وإن أقنعها الجميع بالعكس.

أما رامي.. فقد كان ينظر إليها مشفقًا.. يشفق عليها من هواجسها، من تعلقها بوهم.. أَلِتلك الدرجة تحبه حتى ليخيل لها أنه من يرسل لها بتلك الأشياء!!

كثيرًا ما نقنع أنفسنا بأشياء قد لا تبدو حقيقية، فقط لرغبتنا فيها.. أتفعل هي!!

إن كان هو حقًا.. فلمَ لم يظهر؟ وإن لم يكن هو فمن يفعل؟

– ليلى.. احنا ممكن نرجع للأمن بره نسألهم.

هزَّت رأسها بالنفي:

– مش هيفيدوك بحاجة يا رامي، وكمان من وقت ما فتحوا الكافيهات دي هنا والمكان فقد الخصوصية، أي حد ممكن يدخل من باب الزوار، بيسيب رخصته بس.

– طيب لو خالد، هنلاقي كود الدخول بتاعه متسجل في الأمن.

– يا رامي ممكن يدخل في تاكسي.. خالد مش غبي، وأكيد حافظ الإجراءات أكتر مني.

لم يجد بدًّا لطمأنتها سوى أن يقترح عليها تزويد المنزل بكاميرات مراقبة.. وافقته من فورها.. طلب منها الهدوء والراحة.. وغدًا يومٌ آخر.

غادر رامي منزل ليلى متأخرًا بعض الشيء، بعد أن استطاع تهدئتها بالكاد.. وطوال الطريق وعقله مشوش قليلًا، اليوم بأكمله ليس لطيفًا، يومٌ من الأيام العصيبة، تلك التي تدفعها دفعًا لتمر.. يومٌ عاش فيه الفصول الأربعة.. غير منطقي قطعًا، ولكن.. من تحدث عن المنطق في الحياة؟ فالأصل هو اللامنطقية.. فالحياة ليست عملية حسابية.. مشاعرنا في الموقف الواحد قد تتباين.. انفعالاتنا تختلف.

لننحي المنطق جانبًا.. طفت على السطح صورة ليلى..

تلك الأنثى المحيرة التي تقتله وتحييه آلاف المرات.. بقوتها الظاهرة التي تخفي بداخلها ضعفًا أُنثويًا، تعيث بداخله الفوضى والجنون، تبدله وتغيره.. يتعجب من نفسه ويلومها، يشعر بانقسام روحه، وتضارب مشاعره، آه يا ليلى!! هل يعقل أن تستحوذ على عقله في أشهُرٍ ثلاثة!

لا ينكر أنها لفتت نظره منذ اليوم الأول، منذ أن التقاها في الإنترفيو، ولكن.. كلما اقترب منها كلما اكتشف فيها جزءًا خفيًا.. كلما أدرك أن جاذبيتها وسحرها ليس مبعثه جمالها أبدًا.. "روحها خفيفة" بالمصطلح الدارج. تستحوذ علي القلوب والعقول بخفة ظلها وبساطتها وتلقائيتها.. أسرته بلا شك.

تفاجأ بنفسه أسفل منزله، لا يعلم كيف ومتى وصل؟ وأخيرًا، وجد نفسه في سريره.. يرغم نفسه على النوم لا لرغبته فيه، ولكن للهروب، فالنوم في أحيان كثيرة هو المهرب الوحيد، هو تلك الميتة الصغرى التي نذهب إليها بإرادتنا، فنتخلص من أنفسنا وهمومنا، نتحرر من أرواحنا ننسج عالمًا من اختيارنا، من خيالنا، النوم هو المسكن للروح المثخنة بالجراح.. ولو وقتيًا، غير أن النوم أحيانًا ما يكون عزيزًا، فيضن علينا في عز الاحتياج، وهكذا الحال مع رامي.. فقد حاول النوم، ولكن هيهات.... تطارده الهواجس والذكريات، أصداء أصوات تأتي من بعيد، فتبعث في نفسه ذكريات لا تفعل به شيئًا سوى أن تقتله مراتٍ ومرات!!

ألقى بالوسادة أرضًا، ثم نهض من مكانه وفتح النافذة، وكأن ضجيج الشارع قد يزاحم ضجيج قلبه فيهدئه قليلًا.

***

انتزع رنين الجرس المتواصل ليلى من سباتها العميق، فنهضت من سريرها مسرعة إلى أسفل.. فتحت الباب لتتفاجأ بنور أمامها التي احتضنتها قائلة:

- قلقت عليكي أوي.

لم تفهم ليلى ما الأمر.. هي نائمة.. ما الذي يستدعي القلق إذن! إلا أنها فهمت الآن السبب.. الساعة تقترب من الثانية عشر ظهرًا.. كيف مضى بها الوقت هكذا! هي تستيقظ دومًا مع نسمات الفجر الأولى مهما أوت إلى سريرها متأخرة.. تلك عادتها.

صعدت إلى أعلى مع نور وجلست صامتة قليلًا، مازالت تقاوم النعاس.

– طيب يا ليلى انا هاعمل قهوة، أعملك؟

أومأت لها بالإيجاب، ونهضت هي إلى الحمام.. تركت الماء الساخن ينهمر عليها.. تشعر برأسها ثقيلة.

آخر ما تذكره هو ذلك القميص، والفضول والغموض.. ربما كعادتها اتخذت من النوم مهربًا مع عجزها عن الفهم!!

عادت إلى نور وقطرات الماء مازالت تنساب من شعرها المبتل قليلًا.. جلست أمامها وأمسكت بفنجان القهوة وبدأت في ارتشافه ببطء كعادتها وهى تتطلع إلى نور التي بدت هي الأخرى وكأنها تمر بوقت عصيب.. أنهت فنجانها وجلست صامتة فسألتها نور:

– مالك يا ليلى، مش عاجباني!

وكأنها تنتظر تلك الكلمة، وكأن أحدهم ضغط زر تشغيلها، فقد انطلقت تحكي بلا توقف.. أخبرتها بكل شيءٍ دار أمس، وصولًا إلى الصندوق،

والشك الذي كاد يفتك بها حول أن خالد حي، اتسعت عينا نور حتى آخرهما، ونظرت إلى ليلى نظرة بدت غير مفهومة:

– ماتهزريش بقى، خالد إيه اللي عايش ده!

شعرت ليلى من نظراتها أنها تظن بها الجنون، حتى أنتِ يا نور، بالأمس رامي واليوم أنتِ.. صدقوني أنا لست بمجنونة، كل تلك الأشياء لا يعلمها إلا هو، تلك خصوصياتنا التي لم أخبر بها أي مخلوق على الأرض.

– ليلى..حبيبتي.. انتِ بس بتتمني انه يكون عايش، فبتوهمي نفسك.

وكأن رامي من يتحدث..

أثارها كلام نور، هل حقًا تفعل؟ هل تتمنى الأمر؟ هل اختلقت الأمر برمته عندما شعرت بروحها تحيد عن خالد إلى رامي الذي أصبح يشغل حيزًا كبيرًا من تفكيرها، يخترقها، يحتل جزءًا مهمًا في حياتها، لن تدَّعي العكس أبدًا.. لن تكن كالنعام وتتجاهل الأمر، هل لجأت إلى الأمر كخط دفاعي أخير، أم.. هل عادت لها تلك الهلاوس ثانية، غادرتها منذ الطفولة، أيعقل؟!

– طيب يا ليلى، انتِ إيه مضايقك في الهدايا دي! دي حلوة والله، طيب ياريت حد يبعتلي انا.

- يا نور.. الغموض وحش، إنك مش عارفة مين، ده في حد ذاته شيء سخيف!

تنهدت ليلى متابعة أن النفس تخشى ما لا تستطيع أن تلمسه أو تبصره، لهذا يبعث الظلام فينا خوفًا مبهمًا، نخشى جميعًا الموت.. فهو رحلة نحو المجهول، ويأخذنا الحنين لأيامٍ ولَّت.. حتى وإن كانت سيئة، فقد مضت بحلوها ومرها، ولهذا وعلى الرغم من كون تلك الهدايا في ظاهرها لطيفة؛ إلا أنها تخشاها، تخشى تطورها، تخشى أن تصبح كابوسية!!

لم تدرك ليلى وقتها أبدًا أن خوفها كان صحيحًا، وكأن ستار الغيب انقشع أمامها لحظيًا فاستطاعت قراءة المستقبل.. كم كنتِ صادقة، ستصبح كابوسية بالفعل يا ليلى، ستحيل حياتك إلى جحيم، ستكشف لك خبايا ونوايا جميع من حولك..

- طيب انا عندي فكرة، هتريحك وتريحنا كلنا.
- قولي يا ست نور.

أقنَعَتها بالذهاب معها إلى ذلك المحل، فذلك القميص من ماركة باهظة الثمن غير منتشرة إلا في أماكن لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، ولحسن الحظ أحدهم في المول القريب.. اعترضت ليلى على تلك الفكرة فهي بلا جدوى او نفع:

- يا نور.. هنروح نقول لهم مين اشترى القميص ده!
- لا.. سيبيني أنا اتصرف، مالكيش دعوة، تعالي بس.

***

لم ينم رامي ليلته، كان يتلظى طوال الليل، هواجسه وذكرياته، وكل أحزانه اجتمعوا عليه، ففارقه النوم.. وما أن أشرقت الشمس، حتى اغتسل وارتدى ملابسه واستقل سيارته هائمًا على غير هدى، تذكَّرَ أنه وعد ليلى أمس بالبحث عن تلك الكاميرات، ليكن هذا اليوم، فلا عمل وراءه، الحلقة جاهزة بالفعل، ودَّ لو أرسل لها برسالة يطمئن عليها، أو يذهب مباشرة إليها، ولكنه أزاح هذا الهاجس بعيدًا، فالوقت مازال باكرًا للغاية، ربما هي نائمة بالفعل، ليؤجل اتصاله إلى ما بعد الظهيره إذن، ربثما يكون قد انتهى من بحثه.. كان هائمًا، هواجسه تطارده، لا تفارقه في صحوه ونومه سواء.

غرق مع أفكاره حتى وجد نفسه يمر بجوار مكان لم يقربه منذ عامين.. فبعث الأمر بداخله حنين وشوق مفاجئ، وهو الذي لم يفكر في الدخول إليه قبلًا.. لمَ الشوق إذن؟ لمَ اجتاحته تلك الرغبة فجأة؟

صدَقَ من قال أننا لا ننسى أبدًا أماكننا وذكرياتنا.. ربما نوهم أنفسنا بالنسيان للدرجة التي نظن معها أننا حقًا فعلنا.. ليربكنا أمر بسيط بسهولة.. أمرٌ يمس جدار الروح، فيفجر براكين الشوق واللهفة بداخلنا.

كرائحة عطر اعتدنا عليه مع من نحب، أو ربما مرورنا مصادفة بمكان ترك بصمته على قلوبنا، فتشتعل جذوة الحنين من فورها.. فلا أحد ينسى أبدًا لحظات سعادته.

ركن سيارته في الجراج المجاور، وترجل حتى الباب، ومع كل خطوة يخطوها كان يشعر بعودة جزء من روحه التائهة إليه، فمهما تغيرت أعمارنا، أشكالنا، ملابسنا، أو حتى أسماؤنا.. تبقى هناك حقائق لا تتغير أو تتبدَّل، حقائق انحفرت بداخل وجداننا فأضحت جزءًا منا.. لا تتبدل وإن تبدلنا نحن.. حقائق تبقى كجدار حماية أخير.

تمامًا كحاله الآن، وهو يبرز بطاقته على باب النادي، شعر بأصله.. بحقيقته.. ولكن ما أن دخل؛ حتى فوجئ باندثار المعالم المميزة للمكان، واستبدالها بأشياءٍ أخرى، إلا أن الهواء حمل إليه رائحة لم تتبدل كباقي الأشياء.. رائحة الذكريات.

ربما تحتفظ الأشياء برائحة مميزة لها.. تجذبنا إليها.. تصبح جزءًا من ذكرياتنا.. أم أننا من نحتفظ برائحة مميزة للمكان.. نربط نفسنا بها لنعد إليه ثانيةً؟

لم يشغل نفسه بالتفكير كثيرًا.. ممتنٌ هو لذكرياته.. فبدونها سيصير أعزل.. وحيد.. ضعيف.. لن يستطيع مواجهة الحياة وتقلباتها.

جلس في ركنٍ منزو، لا يفعل شيئًا، فالمكان شبه خاو، شعر بالسعادة لاختلائه بنفسه، غير أنها انتقصت، عندما أقبل أحدهم تجاهه مهللًا بيده:

– مش ممكن.. انت لسه عايش يا ابني!

رسم ابتسامة على وجهه وهو ينهض لمصافحته:

– محمود.. عاش من شافك، بتعمل إيه بدري كده؟ اقعد اقعد..

كان هذا هو محمود، صديق قديم من أصدقاء النادي، غير أن الدنيا فرقت كل منهما في طريقه، تطلع إليه رامي بلا حديث لثوانٍ.. وكأنه يتعرف عليه للمرة الأولى.. أِلتلك الدرجة تبدلنا السنوات؟ فمحمود الجالس أمامه الآن غير محمود منذ سنواتٍ أربع.. وكأن عمره ازداد عشر سنوات على الأقل!!

– إيه يا رامي.. بتبص لي كده ليه وكأنك بتشوفني لأول مرة!!

– اتغيرت يا محمود..

– تقصد شكلي؟ آه شوية.. بس انت اتغيرت من جوه.. مالك بقى؟

هزَّ رأسه بلا رد.. وأدار دفة الحديث بعيدًا.. وإن ظلت كلمة محمود تؤرقه.. هل تغيَّر من الداخل حقًّا؟ وكيف لمحمود أن يدرك ما حلَّ به؟

هل يظهر تغيُّره للجميع إلا هو؟!

- سرحت في إيه يا رامي.. مش باقولك متغير.. طيب انا هاسيبك دلوقتي وهابقى اكلمك.. صحيح انت رقمك زي ما هو ولا اتغير؟
- لا اتغير.. اكتبه عندك.. باقولك إيه.. مش انت مهندس اتصالات؟

أومأ محمود برأسه وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة:

- إيه.. عاوزني اصلح لك التليفون؟

ابتسم له رامي:

- لا يا ظريف، عاوز مكان اشتري منه كاميرات مراقبة.
- بسيطة.. هابعتلك على واتس اب عناوين كذا شركة.

ودَّع رامي وانطلق في طريقه، على وعدٍ بلقاءٍ قريب.. وغادر هو الآخر في اتجاه سيارته، متعجبًا من ترتيب القدر!

لم يكن مقدرًا له أبدًا أن يأتي هنا، فقط ساقه القدر ليلتقي محمود، ليرشده عما يبحث.. ذلك الذي لم يلتقِه منذ سنوات، ولم يسأل أي منهما على الآخر، صحيح كلنا أسباب وخطوات في طريق بعضنا البعض.

أيُعقل أن يكون قدرنا هو المتحكم بنا؟ أليس لنا دخل في الأمر؟ ألهذه الدرجة نُسَاقُ إلى أقدارنا رغمًا عنَّا؟ مدفوعين بقوة لا ندري كنهها لنخوض الأمر؟ أليس لنا سيطرة على حياتنا ومقدراتنا؟ ماذا لو كان قدره أن يلتقي ليلى منذ البداية؟ ماذا لو أن كل ما حدث ما هو إلا وسيلة للوصول إليها؟ لم يكن ليلتقيها في ظروف أخري، هالَهُ التفكير في الأمر.. لا يمكن أن يمر بكل تلك الأشياء فقط ليلتقيها!

بدأت الشوارع تمتلئ بالبشر في طريقهم إلى أعمالهم، مازالت العاشرة والزحام لا يُطاق، اختار مدينة نصر أولًا، فمحمود أشار عليه بثلاث شركات بالفعل هناك.. كاد أن يفقد أعصابه أكثر من مرة في مشاحنات مع سائقي التاكسي، أعصابه بالفعل مشدودة.. إضافه إلى ليلته العصيبة أمس، فأضحى كالقنبلة الموقوتة، غير أنه أمسك بفتيل انفعالاته كثيرًا.. بعد قرابة الساعة وصل أخيرًا إلى وجهته.. شارع مصطفى النحاس..

ذلك الذي تشعر بمجرد أن تجتازه أنك كمن عبرت عنق الزجاجة، زحام متواصل، كما لو أن البشر بسياراتهم يتكاثرون ذاتيًا به.. ألقى بمفاتيح سيارته لأول سائس صادفه، وترجَّل، شعر بالراحة مع ملامسة نسمات الهواء المشبع بالغبار لوجهه، فبرغم كل شيء، ذلك أفضل كثيرًا من البقاء في السيارة بلا حراك.

وفي شارع جانبي وجد ضالته.. مبنى من طابقين، يعلوهما لافتة تحمل اسم الشركة، اجتاز البوابة الرئيسية بهدوء، وصولًا إلى الباب الداخلي الزجاجي، دفعه برفق، وخطا إلى الداخل.. بحث بعينيه عمن يسأله، فوجد موظفه تجلس خلف مكتب زجاجي قريب.. ذهب باتجاهها مبتسمًا، وأخبرها برغبته في شراء كاميرا للمراقبه.. أشارت إليه بالجلوس والانتظار ريثما يأتي إليه المهندس المختص.. شكرها، ولمحها تلتقط هاتفًا، خمَّن أنها تستدعي المهندس من أعلى.. دقائق وأقبل أحدهم تجاهه، أنيقٌ في حلةٍ سوداء بابتسامة مُصطَنعة، أشار لرامي أن يتبعه إلى أعلى، وسأله عما يحتاجه.. بإيجاز شديد أخبره رامي بطلبه:

– عاوز كاميرا تسجل ٢٤ ساعة وفيها رؤيه ليلية مش أكتر.

بعد نصف ساعة من أسئله لم تستقر في عقله سوى لثوان، حول مساحة المكان، والارتفاع إلى آخر كل تلك الأشياء.. كان الحل المناسب هو تغطية المكان كاملًا بثلاث كاميرات تعمل بصورة متصلة، تساءل رامي إن كان بحاجة إلى معاينة المكان أولًا، فأخبره أن الأمر لا يستحق، وفي كل الأحوال إن وجد الفني المختص أن هناك أي أمر يستحق التعديل سيخبره، دفع رامي المبلغ كاملًا، بعد عدة اتصالات بين المهندس والفني، تم تحديد بعد غد

لتركيب تلك الكاميرات، حياه رامي وغادر، نظر إلى ساعته.. تجاوزت الواحدة بقليل ، الوقت مناسب إذن للاتصال بها.. همَّ بالتقاط هاتفه، إلا أنه تراجع ثانية، وانطلق بالسيارة.. فتح الراديو وابتسم مع سماعه تلك الأغنية "لما شُفتها قلبي دق ٣ دقات".. ضحك بصوتٍ عال، والتقط هاتفه، وضغط زر الاتصال بها

***

وبينما كانت ليلى تركن السيارة؛ رن هاتفها، فاختلست نور نظرة إليه ورمقتها بابتسامة خبيثه، أجابت ليلى ونسيت أن هاتفها متصل بالسيارة، فانبعث صوت رامي عاليًا، مرحًا:

- ليلى.. صباح الخير..

فصلت مكبر الصوت فورًا، والتقطت الهاتف وارتدت قناعًا من الصرامة مجيبة:

- صباح الخير يا رامي.. فيه حاجة؟
- لا.. لا مفيش، كنت بس باقولك اني حجزت الكاميرات خلاص.

بدا مرئيًا في تلك اللحظة لها وكأنها تراه أمامها، تردده، طريقة نطقه للكلام، تخيلته يطرق أرضًا، يمسح ربما عرقًا وهميًا سال على جبهته، يتنهد بعنف، يداري أثرًا لإحراجها له، لا يعلم أنها تعمدت هذا بأكمله أمام نور، فتابعت هي بنفس اللهجة الجافة:

- طيب تمام لما ارجع البيت هاكلمك، سلام.

أغلقت الهاتف، ونظرت إلى نور التي تبدلت نظرتها من السخرية إلى التعجب، فسألتها مستفسرة:

- مالك يا نور، بتبصيلي كده ليه؟

- انتِ كلمتيه بطريقة سيئة جدًا!

- لا انا كلمته عادي، يالَّا انزلي.

أمسكت ليلى بالهاتف وأرسلت برسالة لرامي:

- رامي انا آسفه، بس نور جنبي، كان لازم اتكلم كده..

استقبلت الرد في لحظات:

- طمنتيني.. لما تبقي لوحدك كلميني.

ابتسمت ووضعت الهاتف في حقيبتها، وهمَّت بالمغادرة عندما استوقفها صوت نور الساخر:

– مش عارفة ليه مش مطمنة لِك.. حساكي بتعملي حاجة من ورايا.. نخلص بس من الجنان ده وهافضالك.

نظرت إليها ليلى نظرة أجبرتها على مغادرة السيارة.

مزاح نور ما كان إلا ستار يواري خلفه انفعالاتٍ كادت أن تفقدها صوابها.. متلهفة للتأكد.. يكاد قلبها أن يتوقف من فرط خفقانه..

هي متأكده أن خالد مات وانتهى الأمر، وإن أثار الأمر فضولها.. اجتازت بصحبة ليلى تلك البوابة الإلكترونية مرورًا بالعديد من المحلات، وصولًا إلى ذلك المتجر، كان يحمل اسم ماركة فرنسية شهيرة.. وما أن دخلت حتى أدركت لمَ إصرار ليلى عليه دون سواه، فبرغم وجود العديد من المحلات الأخرى بالجوار؛ إلا أن هذا بدا ذو طابعٍ خاص، النعومة الشديدة هى عنوانه، بدءًا من ألوان المعروضات المنتقاة بعناية في درجات متفاوتة من الروز والأزرق، والتي تناثرت بنعومة شديدة في الأرجاء؛ إلى تلك الرائحة التي تملأ المكان.. ربما الڤانيلّا.. عشق ليلى، وصولًا لصوت إديث بياف وهي تشدو بأغنية "لا ڤي إن روز" تلك التي يحمل المكان اسمها.

اجتاحتها النشوة، نسيت للحظة لمَ هي هنا، وتطلعت بشغف إلى المعروضات.. الأنثى هي الأنثى.. تساءلت لمَ لم تفكر مسبقًا في زيارته؟ غير

أن توافد العاملات على ليلى وإصراراهن على التقاط الصور معها، انتزعها من خيالاتها، وأعاد إليها التركيز في الهدف الذي أتت من أجله.

غمرت ليلى حفاوة الاستقبال والتهاني.. لم تسلَم أيضًا من بعض عبارات المجاملة، من نوعية "انتِ أحلى كتير على الطبيعة".. إلى آخر تلك العبارات، ابتسمت هي لهن بسعة صدر، حتى انتهت فقرة الصور، وأقبلت إحداهن تبدو هي المسئولة، وقفت بصحبتهن، فتطوعت نور بالحديث:

- انا معايا قميص لصاحبتي وعاجبني أوي، فكنت عاوزة اشوف منه مقاسي.

لم تفهم ليلى ما العلاقه بين السؤال وبين ما أتت إليه، هي تريد أن تعلم من اشترى لها هذا، ولا شيء آخر، أمسكته البائعة بين يديها، أمعنت فيه النظر جيدًا، ناولته ثانية لنور مجيبة:

- ده من إمتى ده؟ ده كوليكشن قديم، خلص من كام شهر، أو من السنه اللي فاتت كمان!

بهتت ليلى وسألتها:

- متأكدة؟

- أيوه يا مدام ليلى، ممكن اجيب لحضرتك الكتالوج تشوفي، ده كوليكش قديم.. ممكن تلاقيه في الأوت ليت.

شكرتها نور وأخبرتها أنها بالفعل ستسأل هناك، فتابعت هي:

- بس عندي الأحلى منه لو عاوزين تشوفوه..

شكرتها نور ثانية وغادرت بصحبة ليلى الغير مستوعبة للأمر، حاولت ليلى السؤال كثيرًا غير أن نور كانت شاردة، فاستوقفتها ليلى:

- ممكن افهم إيه لازمته المشوار ده بقى؟ استفدتي إيه يعني كده، ممكن تردي؟

بشرود أجابت نور:

- ده كوليكشن قديم.

لم تفهم ليلى، ولم تزد نور، فألحت عليها فأكملت هي:

- بصي يا ليلى.. كده الهدايا دي مش فجأة، يعني ده حد بيشتري من فترة ومتابعك كويس أوي، وعارف هيبعتلك إيه، وهيبعته إمتي.

هزت رأسها في أسى وبصوت خفيض:

- هو خالد، انا متأكدة.

- هيبعت الحاجات دي ليه، الراجل كان بيحبك، يعني لو عايش، هيرجع لِك جري، هيسيبك سنة كاملة ويرجع يلعب بالشكل ده! فوقي بقى.. الميت مابيرجعش، مش عايشين في زمن المعجزات!!

كانت نور تحاول إبعاد فكرة خالد عن ليلى، غير أن بداخلها دق ناقوس الخطر، أحدهم بالفعل يرسل لها بتلك الأشياء، وهو ليس رامي قطعًا، قطعت الشك تمامًا الآن، فمن يخطط لهذا يعلم ليلى جيدًا، أما رامي فقد التقاها منذ أشهرٍ قليلة، ولم يكن مقدرًا له أن يلقاها، فمن ياترى؟ ولمَ؟ وهل سيكتفي بمثل هذه الأشياء؟ أم أن جعبته مازالت تحوي الكثير؟

***

بعد أسبوعين اتصل المهندس برامي يخبره أن الفني سيصل إليه في غضون ساعتين على أكثر تقدير، ويعتذر عن التأخير وأن الأمر لم يكن خطأه.. تجاوز رامي الأمر واتصل هو بليلى التي تنهدت براحة:

- أخيرًا.. طيب ممكن تيجي يا رامي.. أنا لوحدي في البيت.. زينب لسه ماشية.

بعد تجاوز الساعتين بمثلهم وصل الفني معتذرًا.. متعللًا بالزحام الشديد.. كادت ليلى ان تفقد أعصابها لولا أن هدأها رامي.. طلب منها الجلوس

والهدوء.. وأخبرها أنه سيتولى الأمر.. وبينما هو منهمك معه، كانت ليلى تتابع تحركاتهم واختيارهم لأماكن تركيب الكاميرات، كانت موزعة بشكل يضمن تغطية كاملة للمدخل، فكانت إحداهم مباشرة فوق الباب، والأخرى في اليمين، أما الأخيره فكانت أسفل النافذة. تلك الزوايا اختارها الفني بدقة، فمجتمعين تحظى بصورة مكتملة للمنزل.

انقضى النهار كاملًا في التركيب والإعدادات.. كان الفنيُّ بطيئًا للغاية، أو هكذا خُيِّلَ لليلى.. إذ كانت متلهفة لتركيبها بسرعة.. قضى بصحبتهم ساعة أخرى يشرح كيفية عملها، انقسمت شاشة اللاب توب إلى ثلاث شاشات صغيرة، في أسفل كل منهم التاريخ والوقت.. استأذن في المغادرة.. شكرته ليلى واعتذرت له عن عصبيتها.. أوصله رامي إلى الخارج وهي تتابعهم عبر الشاشة.

عاد رامي، فوجد قسماتها يعلوها الهدوء:

- أخيرًا.

- ممكن تهدي بقى.. كله تمام اهو ومفيش داعي للقلق.

ابتسمت دون رد، ونهضت في اتجاه المطبخ متسائلة:

- نتعشي سوا..

هز رأسه بالنفي:

- لا.. يا دوب أمشي.

- طيب نسكافيه، أكيد عندك صداع.

أوما برأسه مبتسمًا.. وجلس ممسكًا بكتيِّب التعليمات.. دقائق وعادت هي تحمل كوبين.. ناولته أحدهما.. وجلست بجواره صامتة.. فقط متطلعة إليه بلا حديث أو حراك.. تنظر إليه فقط!

اجتاحتها مشاعر في تلك اللحظة تعجز الكلمات عن التعبير عنها.. وإن وشَت لمعة العين وانفراجة الشفاه البسيطة وتهدجها، بالبركان الثائر بداخلها.

رن هاتفها فانتفض كليهما حتى أن النسكافيه تناثر من كوبها على بنطلون رامي، فاعتذرت له وهي تحاول مسح ما تناثر بيدها:

- أنا آسفة..

- ولا يهمك.. حصل خير.

انسحب مسرعًا إلى الحمام، وظلت هي مكانها متطلعةً إلى الهاتف الذي لم يتوقف عن الرنين واسم نور أمامها.. وتباينت مشاعرها تجاهها.. أهي غضبى أم ممتنة! فاتصالها انتزعها من خيالاتها، أو بالأحرى أمنتياتها.. ربما في اللحظة المناسبة، فقد كانت على وشك أن تذوب بين يديه وإن لم يتلامسا، يكفي أن عينيه التهمتها..

أمسكت الهاتف وابتعدت قليلًا وكأنها تهرب منه.. تهدئ أعصابها الثائرة بالبعد عن أي مكان يحمل رائحته، لاذت بشرفتها سامحة للهواء البارد بمحاولة إخماد فوران مشاعرها، وإيقاف اللهيب المشتعل في خلاياها..

تنحنحت، وضغطت زر الرد، بدا صوت نور لاهثًا، صوتٌ تعرفه ليلى جيدًا إذا ما كان هناك أمر جلل.. وبالفعل صدق توقعها:

- مش هتصدقي وقع في إيدي خبر إيه!!

طلبت منها ليلى الهدوء والسيطرة على انفعالاتها قليلًا، فالتقطت نفسًا عميقًا، وانطلقت تحكي بلا توقف عن مركب سياحي، يرتاده شباب من صفوة المجتمع، وأخبرها مصدرها أن نشاطه مشبوه، ربما شذوذ أو ما شابه، وبينما هي مسترسلة في الحديث كانت ليلى تنقر بأصابعها على السور وكأنها تحاول التركيز مع نور:

- نور.. الموضوع ده مافيهوش هزار، انتِ متأكدة؟
- أيوه يا بنتي، وانا من إمتى يعني باقول اي كلام!
- طيب انا رامي كده كده عندي، هاقول له، ونقعد سوا، ونشوف هنعمل إيه..
- أوباااااا، طيب.. شكلي اتصلت في وقت مش مناسب..

– اقفلي يا نور، اقفلي بلاش سخافة.

أغلقت الهاتف، وإن ظلت مكانها، فلم تقوَ على العودة إلى الداخل.. فبداخلها بركان أوشك أن ينفجر..

– نور كانت عاوزة إيه؟

انتفضت في عنف مع صوته، فالتفتت إليه.. فرأته يقف مبتسمًا ممسكًا بالكوبين بين يديه، ناولها خاصتها، التقطته من بين يديه، وإن تعمد هو أن يلامس يدها للحظات، فسرت رجفه في أوصالها.. من قال أن الكهرباء وحدها هي من تقتل! قطعًا لم يختبر تلك اللمسة أبدًا، فقد كانت محملة بشحنات كهربائيه تفوق الألف أمبير، كاد أن ينخلع قلبها معها، سحبت يدها برفق وبطء شديدَين وكأنها تستعذب لمسته، وكأنها تتمنى لو دامت تلك اللمسة للأبد..

شرحت له الأمر برمته، فارتسم القلق على وجهه وانتقل إلى صوته:

– ليلى، الموضوع ده مش هيبقى بسيط..

قطع حديثه مرة واحدة وكأنه تذكَّر شيئًا.. فزوي بين عينيه وتابع:

– فاكرة الحلقة بتاعتك من سنين عن بنات الليل؟

امتقع وجهها، وخرج صوتها مرتجفًا رغمًا عنها:

– مالها؟

- وشك اصفَرّ كده ليه؟ أنا باقولك فاكراها.. كانت طلقة، بس اتهاجمتي بعدها كتير، بس انتِ دلوقتي مش محتاجة الهجوم ده ولا محتاجة تعملي كده.

نظرت إليه غير مدركة، فتابع:

- أقصد يومها انتِ كنتِ لسه بتبدأي، مكانش عندك اللي تخسريه، الحلقة دي تقريبًا هي اللي بصراحة عملت شهرتك، لدرجة اني فاكرها لحد دلوقتي!

سارت إلى الداخل، في حين تابع هو من خلفها:

- انا شايف بقى لو حلقه زي دي دلوقتي مش هتبقى حلوة، خاصة ان القضيه دي عندنا مش مألوفة.. انتِ أكبر من كده.. عمومًا سيبني أسال واقولك كل التفاصيل.

أومأت برأسها دون رد، وألقت بجسدها على الكرسي، فجلس بجوارها، ونظر إليها:

- انتِ كويسة؟

- آه بس مرهقة أوي.

انتصب واقفًا، وغادر في طريقه إلى أسفل متابعًا:

- طيب اسيبِك انا ترتاحي واروح لبابا، تصبحي علي خير.

تابعته ببصرها وهو ينزل إلى الأسفل، وما أن سمعت صوت الباب يغلق من ورائه بهدوء، حتى نهضت من مكانها وألقت بجسدها على الأريكة.. تركت لانفعالاتها العنان.. فلم تجرؤ أبدًا على إخباره بسبب توترها، فقط حاولت التماسك وتجاوز الأمر، مر بها الوقت وهي على حالها حتى خُيِّل لها أنها تلمح شيئًا يتحرك أمام المنزل، في البداية ظنت انه مجرد خيال أو ظل ربما لقطة ضلت الطريق، إلا أنه اقترب أكثر.. ورفع وجهه في اتجاه الكاميرا القريبة منه، فأجبرت نفسها على الاعتدال وفتحت عينها بيدها بقوة وكأنها ترغمها على التركيز، ضغطت زر تقريب الصورة، فاستقبلت ابتسامته الساخرة وكأنها طعنة في قلبها، انتفضت في عنف، وتراجعت كالمصعوقة في مكانها، فمن أمامها الآن من المفترض أنه ما عاد ينتمي إلى عالمنا.. من أمامها كان.. كان خالد!!

***

استقبل رامي اتصالًا من ليلى، فاندهش!! فلم يمضِ سوى أقل من ساعه على مغادرته، وقبل أن ينطق سمع صوتها صارخًا:

- رامي.. خالد هنا.. الحقني..

وأتبعتها بصرخة مكتومة، وانقطع الخط.. حاول الاتصال بها مرارًا دون جدوى، ذهب إليها مسرعًا، لا يتذكر من الاساس كيف وصل إليها، كل ما يتذكره أنه عندما وصل إلى منزلها كان الظلام يغلفه على غير العادة.. رن الجرس مرارًا بلا رد، فلم يجد بدًّا من كسر الباب، ومستعينا بنور هاتفه اجتاز السلم عدوًا إلى الأعلى وهو يتمنى ألا يكون متأخرًا كثيرًا، أضاء النور ووجدها ملقاة على الأرض.. فأسرع تجاهها.. حاول إفاقتها فلم تستجب..

صوت موسيقى ينبعث في المكان بلا مصدر محدد!!

حملها بين يديه برفق إلى السرير، مازالت فاقدة الوعي، مرت ساعات والموسيقى لم تتوقف، حتى فتحت عينها أخيرًا، وبلهفة حقيقية، احتضنها برفق، مسح على شعرها بهدوء، متمتمًا:

- في إيه يا ليلى، حصل إيه؟

وضعت يدها على أذنيها..

- اقفل المزيكا دي..

انهارت في البكاء، وألقت بنفسها بين أحضانه، كما لو أنها تحتمي به من خطر مجهول، وأخذ جسدها في الارتعاش، فهدأ من روعها:

- طيب اهدي، انا حاولت ومش عارف مصدرها..

أشارت بيدها إلى غرفه جانبية.. فذهب إليها.. كانت تحتوي على ساوند سيستم منزلي، اتصلت به فلاش ميموري وُضِع بداخلها اللحن.. لم يستوعب الأمر.. فصل الفلاش ميموري وعاد إليها وهو يحملها بين يديه.. أمسكتها من بين يديه باكية:

– خالد كان هنا..

تطلع إليها غير مستوعب الأمر، أي هراء هذا، التقط يدها المرتجفة بين يديه، حاول تهدئتها قليلًا:

– ليلى، إيه اللي انتي بتقوليه ده؟

اندفعت الكلمات من بين شفتيها بلا توقف، وأخذ جسدها في الارتعاش وهي تحكي له كيف أنها لمحت أحدهم ينظر إليها مباشرة من خلال الكاميرا، وكأنه يسخر منها، وكأنه يخبرها بمعرفة مكانها تحديدًا، والذهول الذي شلَّ تفكيرها لثواني، حتي وجدته أمامها..

قاطعها رامي:

– طيب يا ليلى.. إهدي، أنا هاشوف الفيديو، مش بتقولي ان الكاميرات شافته؟

أومأت برأسها، ففتح هو اللاب توب بحثًا عن تسجيل الساعات المنقضيه:

– ليلى.. مفيش حاجة!!

– يبقى مسحه، خالد عايش.. والمزيكا يا رامي!

انفجرت في بكاء هستيري، في حين وقف هو غير مستوعب.. ما علاقه المزيكا بالأمر؟ لمَ قد يفعل خالد هذا بها؟

– ليلى انا مش فاهم حاجة، ومش مستوعب، خالد فين بس، وايه المزيكا دي.. انا مش فاهم بجد!!

لم تستطع الرد.. فقط متطلعة إلى الفلاش ميموري باكية..

هو بلا ريب..كل الشواهد تشير إلى ذلك..

العطر.. القميص.. اللحن.. ولكن لمَ يا خالد؟ لم تحيك كل تلك الألاعيب؟ لمَ هجرتني وزيفت موتك وعدت الآن بتلك الطريقة؟

ارتفع بكاؤها ثانية.. بكاءٌ أدمى قلب رامي.. فاحتواها بين يديه وهمس لها:

– إهدي.. إهدي أرجوكِ.. انا جنبك اهو.

سكنت قليلًا بين يديه.. فأبعدها عنه برفق مستئذنا في المغادرة.. إلا أنها تشبثت به كطفل يلوذ بأمه:

– لا ماتمشيش، اقعد معايا.. بات هنا..

– ماينفعش يا ليلى..

– رامي.. أرجوك ماتسبنيش، أرجوك يا رامي، خالد ممكن يرجع في أي وقت..

أمام نظراتها المتوسلة، وبكائها، لم يجد رامي بُدًّا من المكوث معها، وإن عاد السؤال يلح بقوة.. لمَ يفعل خالد بها كل هذا؟

***

مرَّ الليل ثقيلًا على كليهما، حاول هو تهدئة روعها كثيرًا، أحكم إغلاق باب المنزل بوضع الكراسي من خلفه، ريثما يأتي بنجار صباحًا لإصلاح ما أفسده هو حين كسر الباب عنوة، كانت تجلس في وضعية الجنين، متكومة على نفسها مرعوبة، فشعر بالشفقة عليها، وحاول التخفيف عنها:

– ليلى.. صدقيني، انتِ يمكن بيتهيألك، أوهام يا ليلى..

– عاوز تجنني؟ والمزيكا أوهام.. طيب والبارفان؟

ما علاقة الموسيقى بالأمر.. هكذا تساءل، فشرحت له الأمر بدايةً من لقائهما في لندن، مرورًا باختصاره المعزوفة الشهيرة إلى "كمان ليلى".. وأن تلك هي مفضلتهم.. "طالما عزفها هو.. أو رقصا سويًا عليها برغم حزنها"..

صمتٌ ثقيل ساد بينهما بعد انتهائها من حديثها.. حتى قطعته هي:

– ساكت ليه.. صدقتني دلوقتي؟

لم يستطع الرد..

– نامي يا ليلي دلوقتي.. والصبح يحلها الحلال.

***

شق ظلمة الليل خيط ضوء رفيع، فداعب وجه ليلى، ففتحت عينيها، تعجبت من رامي النائم على الكرسي بجوارها.. أنى له أن يكن هنا؟ لحظات حتى استوعبت الأمر.

نهضت من سريرها وهزت رامي برفق.. فانتفض فزعًا:

– فيه حاجة جديدة؟

ربتت على كتفه مهدئة إياه:

– ماتخافش، النهار طلع، يالَّا قوم اغسل وشك على ما احضَّر الفطار.

نظر إليها بعينيه النصف مغلقة:

– انتِ كويسة؟

اومأت برأسها أن نعم.. وغادرت إلى أسفل، في حين غفا هو بضع دقائق أخرى.. علا صوتها يطلب منه النزول إلى المطبخ، فنهض متثاقلًا وهو يشعر

أنه بحاجه إلى طن من القهوة المركزة لإفاقته، بالكاد كان يتحسس خطاه.. وصل إليها وهو شبه مغمض العينين، فارتفع صوتها مداعبًا:

- تعالى ساعدني في الفطار، بلاش كسل.
- طيب هاغسل وشي وافوق.

ابتسمت له وغادر هو إلى الحمام، سد الحوض وملأه بالمياه، وضع رأسه بداخله، وكأنه يجبر خلاياه بأكملها على الاستيقاظ دفعة واحدة، تطلع إلى وجهه في المرآه ومازالت قطرات المياه تبلله، ترك السهر آثاره عليه، عيون منتفخة وبأسفلها سواد عرف طريقه إليه، خطوط عميقة انحفرت على جبهته، شفتاه جافتان.. أيُمكن للقلق والتوتر أن يغيرا من شكل الإنسان في أيام معدودات هكذا؟ بالكاد يتعرف على نفسه.. أزاح تساؤلاته جانبًا والتقط منشفة جفف بها شعره وغادر إلى ليلى، وقف بجوارها، وبدأ في إعداد القهوة متسائلًا عن الإفطار، أشارت إلى أطباق تراصت على مائدة المطبخ الصغيرة، نظر إليها ساخرًا، وهي تحمص التوست:

- هو ده الفطار؟ توست وقهوة ومربى.. وتعالي ساعدني واقف معايا..

أمسكت منه الملعقة وشرعت هي في تقليب القهوة بعقل شارد، اقترب منها ممسكًا بيدها متسائلًا:

– ليلى، انتِ..

قطع جملته فاستحثته هي فتابع:

– كنتِ شاربة حاجه امبارح؟ واخدة أقراص؟ أي حاجه يعني؟!

رمقته بنظرة عتاب:

– أنا ماليش في الحاجات دي يارامي أبدًا.

وضعت القهوة في فنجانين.. وجلس هو قبالتها.. شملهم صمت ثقيل لا يقطعه سوى صوت التوست بين أسنانها، أنهى رامي قهوته ونهض مودعًا إياها:

– أنا هاروح أشوف نجار.. ماتفتحيش لحد.

تتابعه في صمت حتى فتح الباب، رأته ينحني لالتقاط شيءٍ ما.. ثم يعود ثانية إلى الداخل.. ناولها مظروفًا، فانتزعته من بين يديه بفضول وخوف، لم تجد بداخله سوى ورقة ملفوفة بعنايه، فضتها برفق، فاتسعت عيناها عن آخرها في ذهول.. لم يفهم رامي الأمر، فما كانت تلك الورقة إلا النوتة الضائعة الخاصة بـ "خالد"!!

***

بينما ينهي احتساء قهوته.. لمحها تركن سيارتها.. يتابعها في صمت أخفى وراءه الكثير من الترقب والتوتر.. احتلت صورة ليلى كامل عقله.. خوفها

وبكاؤها عندما استلمت تلك الورقة.. ارتعاشها.. احتماؤها به كطفل يلوذ بحضن أمه..

شعر بالعجز وقلة الحيلة.. ولا شيء يفوقهما قهرًا.. الأمر عجيب.. تردد وخوف وقلق يعتريه.. الأمر يتطور..

رآها تدخل إلى الكافيه.. جميلة هي.. تلك المرة الأولى التي يطيل النظر إليها.. ربما لأنها تتضاءل بجوار ليلى دومًا حتى تنطفئ تمامًا، فليلى نجمٌ دريٌ متألق يخلب الألباب.. يكفي الكواكب أن تكون بجوارها لتقتبس من نورها وضيائها، فما ضوء القمر بجوار الشمس إلا وهج مقتبس.

لحظات وأقبلت تتهادى في مشيتها.. سلامٌ بارد من كليهما.. جلست قبالته.. طال صمتهما وبدا كل منهما وكأنه يتفحص الآخر.. تعلقت عينا رامي بالسلسلة المستقرة على صدرها.. تشبه سلسلة ليلى كثيرًا.. عقد ما بين حاجبيه محاولًا التأكد.. هي بلا ريب.. كيف له ألا يميزها وقد رآها مسبقًا.. لمحت هي نظراته فارتبكت، حاولت مداراتها بشعرها فلم تفلح.. فات الأوان.

تلاقت الأعين للحظات.. حاول سبر أغوارها.. رأى خلالها ما صدمه.. أيعقل هذا الأمر؟ ولم الدهشة.. فالتاريخ خير واعظ.. الغيرة والحقد.. الخطيئة الأولى..

تنحنح وخرج صوته قاسيًا رغمًا عنه:

– نور.. أنا لما طلبت اقابلك كنت هاحكيلك حاجة حصلت امبارح لليلى.. بس لما شوفت دي..

صمت قليلًا مشيرًا بيده إلى قلادتها.. فأمسكتها هي بيدها بحركة لا إرادية.. فتابع هو وإن اكتسى صوته بصرامة مخيفة:

– لما شُفتها يا نور..كلامي اتغير.

بهتت ولم تنتطق لبرهة.. وإن استجمعت قوتها وتعمدت الحدة هي الأخرى:

– أنا مش فاهمة حاجة يا رامي! ومش فاضية للألغاز دي.. يا تقول عاوز إيه.. يا متعطلنيش من فضلك!!

أقبل النادل تجاه نور متسائلًا عن طلبها.. فصرفته بحدة.. راقبه رامي حتى ابتعد والتقط أنفاسه محاولًا الحفاظ على هدوئه قليلًا:

– نور.. انتِ كانت إيه طبيعة علاقتك بخالد؟

نظرت اليه بعدم تصديق.. وارتفع صوتها مستنكرًا في حدة:

– خالد.. خالد جوز ليلى.. علاقة إيه يا رامي.. انت مجنون؟

أشار إليها بيده أن تهدأ، راقب توترها.. صدرها الذي يعلو ويهبط الآن.. شحوب وجهها.. فأدرك أنه أصاب هدفه، فسحب نفسًا عميقًا وزفره في بطء:

- لا يا نور مش مجنون.. أنا عارف انك بتحبي ليلى، متأكد من ده، بس..

صمت قليلًا ليرى وقع كلماته عليها ثم تابع:

- بس احنا بشر.. وبنضعف.. وساعات بنطمع في اللي في إيد غيرنا.. زي خالد كده..

قاطعته هي بعصبية:

- خلصت المحاضرة؟ ولا لسه في كلام تاني مالوش معنى؟

ابتسم هازئًا من عصبيتها، وأشار بيده إلى تلك السلسلة المدلاة على صدرها:

- ليه لابسة سلسلة زي بتاعة ليلى؟ دي نسخة طبق الأصل، وليلى قالتلي ان سلسلتها خالد عملها مخصوص عند جواهرجي يعرفه..

أمسكتها بين يدها مجيبة:

- يا سلام.. وعلشان لابسة سلسلة شبهها ابقى مصاحبة جوزها.. انت مدرك اللي بتقوله؟

نطقتها بسخرية متعمدة.. وإن شرد عقلها بعيدًا رغمًا عنها إلى قبيل طلاقها مباشرةً.. يوم أن هجرت منزلها محتمية بليلى، التي احتوتها وفتحت لها منزلها،

وأن خالد صدقًا ساندها معتبرًا إياها في منزله شقيقته، كان نموذجًا لا يجود الزمان بمثله كثيرًا، تتذكر كل شيء كأنه الآن..

لحظة أن اتصلت بها ليلى تزف إليها البشرى.. وافق ياسر على تطليقها أخيرًا بهدوء وبعيدًا عن ساحات القضاء.. مشاعرها وقتها لا تنسى.. فلا هي فرحة ولا حزينة.. هي فقط أنثي أهدرت كرامتها بيدها.. أو هكذا شعرت.

زارتها ليلى مع خالد للاحتفال بتلك المناسبة.. تبتسم لهم وقلبها ينزف.. أي احتفالٍ هذا.. احتفال بخزيها أم بفشلها.. كانت ليلى تعتقد أن نور انتصرت واستردت نفسها وحريتها.. كانت سعيدة حقًا لأجلها.. إلا أنها لم تعلم أن الجرح أعمق من أن يشفى باحتفالٍ بسيط.. صحيح أن النار لا تحرق سوى ممسكها.. فهي وحدها من تبكي ليلها.. وحدها من تدفع ثمن اختياراتها.. وحدها من تجتر مأساتها كل يوم.. ومدفوعة بجرحها كأنثى، وبغيرة لا تعلم مصدرها أو سببها.. ألقت شباكها على خالد بهدوء.. لم تقترب أو حتى تلمح.. على العكس كانت متحفظة جدًا.. ربما أكثر من ذي قبل، ولكنها تعمدت الالتقاء به في أماكن بدت كمصادفة.. كالكافيه القريب من البنك.. تعمدت مغادرته في نفس وقت انتهاء عمله.. لمحها هو.. فأقبل تجاهها مبادرًا بالسلام:

– نور.. إيه الصدفة دي.. بتعملي إيه هنا؟

ابتسمت له.. فقد التقط الطعم.. بعد دقائق كان بصحبتها في الكافيه.. طال حديثهما لساعات.. أخبرت هي ليلى بالأمر كصدفة عابرة.. متعمدة أن يبدو الأمر طبيعيًا.. تعددت الصدف بينهما، أو اللقاءات بمعنى أدق.. وفي كل مرة تشعر به يقترب أكثر.. تطور الأمر إلى رسائل متبادلة.. وليلى لا تدري شيئًا.. هي مشغولة بالبرنامج، حتى أنه ذات يومٍ باح لها بضيقه من تصرفات ليلى:

- عارفة يا نور.. أنا عمري ما اشتكيت.. بس فعلًا مابقتش قادر استحمل.. ليلى طول الوقت في الشغل.. باشوفها صدفة.. مش حاسس اني متجوز.. ده كمان يا نور رافضة تخلف.. الحجة ان الأطفال هتعطلها!!

هنا أدركت نور أنها بدأت تصيب هدفها.. خالد أصبح يرى ليلى بعين أخرى.. تظاهرت بالأسى وحاولت التسرية عنه.. اعتاد هو على رسائلها.. حتى اختفت يومًا.. أغلقت الهاتف واختفت.. مر يوم.. وفي الثاني كان على عتبة منزلها.. رن الجرس ففتحت له.. وجدته أمامها والقلق باديًا على وجهه.. فاحتضنها من فوره.. فابتعدت عنه بضيق.. سبقته إلى الداخل فتبعها وأغلق الباب خلفه.. جلس على أقرب كرسي صادفه منكس الرأس، مبررًا فعلته تلك:

- أنا آسف يا نور.. بس قلقت عليكِ.

بصوت اكتسب جدية مصطنعة نهرته:

- تقلق عليا ليه يا خالد؟ أنا كويسة.

- اختفيتي يومين.. انا اتعودت عليكِ.. نور انا..

قاطعته بلهجة مستنكرة:

- خالد.. إيه الكلام ده؟ أنا باعاملك كأخ لا أكثر ولا أقل!

- نور من فضلك اسمعيني.. أنا فعلًا اتعودت عليكِ.. اتعودت على الاهتمام اللي باشوفه منك، الحرص عليا جدًا، كل حاجة فيكِ يا نور عاجباني، بجد انا مفتقد أنثى زيك في حياتي.

طأطأت رأسها.. وإن كان قلبها يرقص فرحًا.. فأخيرًا بعد أشهرٍ نالت ما تمنت.. تصنعت الحدة وهي تبتعد عنه:

- ماينفعش الكلام ده يا خالد.. ليلى..

قاطعها ملوحًا بيده.. وأقبل تجاهها.. جلس بجوارها:

- ليلى مش ضروري تعرف حاجة يا نور.. خليني جنبك لحد ما اشوف هاقدر اعمل إيه.. اسمحي لي اني أكون سبب سعادتك،

وأعوضك عن كل الوجع اللي مريتي بيه.. صدقيني يا نور احنا محتاجين لبعض.

وقد كان.. قضيا سويًا أيامًا في الجنة..كانت نور تتفنن فيها في إسعاده.. أشعرته بأنه الرجل الوحيد على الأرض، تتعمد إظهار نقائص ليلى بإهتمامها به.. وكان هو منغمس معها كليًا.. نهل من بئر السعادة المتجدد.. ولكن.. الأنثى أنثى مهما حدث..

سمعته نور يتحدث يومًا في الهاتف مع جواهرجي بخصوص تصميم سلسلة.. توقعت أنها لها إلا أنها فوجئت أنها لليلى.. فثارت عليه:

- كنت فاكراها علشاني.. ما انا كمان عيد ميلادي قرب، ولّا انا مليش لازمة عندك وماستاهلش زيها!

ابتسم لها بهدوء، وقبل يدها مهدئًا من غضبها قليلًا:

- بهدوء طيب.. أنا ماعرفش إمتى عيد ميلادك.. دي أول حاجة.. وبعدين ولا تزعلي هعملك واحدة.. بس..

صمت قليلًا فاستحثته هي على الإكمال:

- بس إيه يا خالد؟

- توعديني انك ماتلبسيهاش.

تطلعت إليه في ذهول.. فاستفاض في الشرح:

- علشان دي معمولة مخصوص.. محدش هيصدق الصدفة يا نور.. لو عاوزة نخسر بعض البسيها.

أدركت لحظتها أنها هي الخاسرة.. مهما فعلت ستبقى دومًا في الظل.. ليلى هي زوجته وحبيبته.. مهما ادَّعى العكس.. هي من يفكر بها ويخشى على مشاعرها.. هو على استعداد للتضحية بها لأجل ليلى..

قبيل سفره أقبل لها مودعًا.. ناولها السلسلة.. طلبت منه المكوث قليلًا.. تعلل بانشغاله بالترتيب لمفاجأة ليلى.. ثارت عليه:

- كل حاجة ليلى.. وانا يا خالد؟
- انتِ إيه يا نور.. انتِ عارفة كويس أوي علاقتنا إيه.. وليلى إيه عندي.. مهما حصل بينَّا هي مراتي.. أنا بحبها يا نور.. عمري ما انكر اني مبسوط معاكي.. انتِ عملتيلي التوازن اللي باحلم بيه.. عوضتيني عن حاجات كتير.. لكن كله إلا ليلى.. هي في مكانة محدش يقدر يقرب منها.. مهما حاول.

لا تعلم لم صدمها الرد.. لم ينطق سوى بالحقيقة.. ليلى هي حقيقته.. مهما حدث هي زوجته..

- اطلع بره.. واوعى تتصل بيا تاني..

حاول تهدئتها.. فأزاحت يده بعنف مبتعدة عنه.. طالبةً منه الخروج من حياتها والابتعاد عنها للأبد.. ويكفي ما صار.. غادر كمن سبقه وجلست هي تبكي.. كعادتها.. وبعد أيام سقطت طائرته.. ياليتها سقطت قبل أن يلفظها من حياته.. ياليته ذهب وهو معها.. فقط لو تأجَّل شجارهم أسبوعًا واحدًا.. فقط أسبوع..

- سرحتي في إيه يا نور؟!

سحبها صوت رامي من تلك الذكريات.. تطلعت إليه مجيبة في حدة:

- ولا حاجة.. بس مش مصدقة تخاريفك يا خالد..

- أنا رامي يا نور.

انتفضت في عنف.. وتطلعت إليه بأعين التمعت بدمع حبيس.. والتقطت حقيبتها مغادرة بلا كلمة أخرى.. أما هو فقد جلس مكانه مبهوتًا.. ما كان ليتخيل أبدًا أن الأمر هكذا.. يأتي بها الآن لإخبارها عن ليلى.. ليتفاجأ بها كانت على علاقة بزوجها!!

أي أمر هذا.. بل أي صديقة تلك.. أيخبر ليلى أم ماذا؟ يكفيها ما بها.. لن يخبرها.. هي تعاني بما يكفي، فلن يزيد فوق وجعها أوجاعًا.. أما هي.. فقد انهارت خلف مقود السيارة باكية.. وكأن رامي بكلامه أعاد إليها وجعها ثانية.. نكز الجرح بقوة.. أراها حقيقتها.. هي تحب ليلى.. أخطأت في حقها

لن تنكر هذا.. ولكنها لا تريد خسارتها أبدًا.. من منا بلا أخطاء.. من منا لم يفعل؟!

ظنت أنه ماضٍ وانتهى.. ولكن.. لا شيء ينتهي.. لا شيء يختفي إلى الأبد.. هي غلطة أو سقطة وتناستها، لا.. لا لقد نسيتها بالفعل، ولكن.. لا أسرار تبقى حبيسة إلى الأبد.. الحقيقة مهما توارت ستظهر يومًا ما، ولكل شيء ثمن، طال الوقت أم قصر.. فهو مدفوع.. والآن حان وقت السداد.. لا لا.. لن تسمح بهذا أبدًا.. نزلت مسرعة من السياره عائدة إلى رامي.. كان على وشك المغادرة فاستوقفته:

- هتقول لليلى؟

تطلع إليها بلا رد.. فسألته ثانية.. فأجاب:

- لا يا نور..كفاية اللي هي فيه.
- أنا ماكُنتش..

نهض من مكانه في طريقه للمغادرة.. وتابع بينما يجمع أشياءه:

- مش عاوز اسمع.. حياتك الشخصية تخصك.. بس اوعي تفكري تإذيها تاني.. لأن وقتها محدش هيمنعك غيري.

***

منذ أن استلمت النوتة وهي لا تفعل شيئًا.. فقط متطلعة إليها كأنها تعاتبها.. كأنها تنتظر منها تبريرًا لاختفائها وعودتها ثانية.. تنتظر أن تلمح بداخلها شيئًا يرشدها لما يحدث..

مر بها الوقت بطيئًا.. فنهضت من مكانها وأحضرت الكمان ووضعته أمامها متطلعة إليه هو الآخر.. انتهى بها المطاف وحيدة.. فقط هي والكمان..

لأول مرة تدرك تلك الحقيقة التي طالما أنكرتها.. هي وحيدة.. مهما فعلت.. وحيدة.. هل أخطأت عندما رفضت الإنجاب.. هل أخطأت؟ هل حرمت نفسها من سعادتها بيدها.. هل شهرتها ونجوميتها تستحق منها أن تضحي بأمومتها.. غيرها يدفعن الآلاف وربما على استعداد لدفع أعمارهن في سبيل كلمة "ماما" وهي تنازلت عنها بكامل إرادتها..

هل اخطأت في حساباتها.. نفضت عن نفسها الأفكار.. يكفيها حقًا ما بها.. لا وقت لعتاب ولا جلد ذات الآن.. ما انقضى فقد انقضى..

فتحته ومدت يدها تداعب أوتاره.. فأصدر صوتًا مزعجًا!!

ارتسم على وجهها التعجب.. منذ متى وهو بذلك الإزعاج؟ لامست وترًا آخر.. فأصبح الصوت أكثر إزعاجًا!! أمسكت بالكمان بين يديها.. مرت بيدها على أوتاره.. فلامست وترًا ممزقًا كقلبها.. اعترض كلام خالد أفكارها..

"عارفة يا ليلى انا باحس بإيه.. إن الكمان ده قطعة من قلبك.. أوتاره دي منك.. متبصيش باستغراب.. هو صحيح ملكي من قبل ما اعرفك.. بس لما حبيتك.. حسيت انه فرحان بيكي.. نغماته بقت أحلى.. أوتاره نفسها اختلفت.. تحسي انه شرب من روحك.. من فرحتك وبهجتك.. صدقيني طاقة حبك طاغية.."

بكت.. أهذا مُزّق وتر منه.. مُزق بتمزيق قلبها.. باستهلاك روحها.. ألتلك الدرجة تشعر بنا أشياؤنا.. بكت على كمانها ذو القوس المكسور والوتر المقطوع.. بكت حالها وحاله.. احتضنته مواسية نفسها.. ذلك الذي صاغ لها أعزب الألحان.. رقصت على نغماته.. حلَّقت في سماء عشق خالد.. وثالثهما هو.. مست دموعها أوتاره.. فاهتزت مشاطرة إياها وجعها..

لمَ يا خالد؟ لم تفعل هذا؟

لم تكلف نفسك مثل هذا العناء؟ لم حرمتني وجودك قرابة العامين وتعود الآن؟ لماذا عدت من الأساس؟ لم كل تلك الأحجيات؟ لم يا خالد.. إن كنت حيًا فلتظهر.. وإن كنت ميتًا فلروحك السلام..

ميت!! انتفض جسدها في عنف.. فإن كان ميتًا.. فمن ذلك الذي أورثها الجنون.. من الذي يعبث معها وبها؟ تدفق الدم حارًا في رأسها فأمسكتها بكلتا يديها ضاغطة عليها بقوة لعلها تهدأ من تدفقه قليلًا.. وان تدفق معه

ثانية حوارها الأخير مع رامي.. يلمح إلى اختلاقها الأمر.. هي ليست بمجنونة ولا تختلق شيئًا.. إلا أنه بعيد.. وبعيد جدًا في ركن منسي في عقلها.. بدأت ذكرى تزيح التراب عن نفسها.. وتحتل كامل عقلها..

ذكرى لحكاية لا يعلمها أحد سوى أمها المتوفاة وأختها المهاجرة.. حتى خالد ما أخبرته بها قبلًا..

"في طفولتها كانت تهوى تربية العصافير، وما أن تتعلق بهم إلا وتتفاجأ بهم أمواتًا!! بكت لوالدتها كثيرًا، والتي استغربت الأمر بدورها، واستمر الحال طويلًا.. سألت جميع من حولها عن تفسيرٍ للأمر، ولكن بلا جدوي.. فبرغم الاعتناء بهم إلا أنها تجدهم صباحًا أمواتًا.. حتى استيقظت يومًا، فلمحت صغيرتها تقف بجوارهم.. اقتربت منها متعجبة.. أنى لها أن تتواجد هنا؟ صعقت لما رأت.. ليلى ممسكة بأحدهم محكمة قبضتها حول عنقه والعصفور يحاول الإفلات.. فانتزعته من يدها ونظرت إلى الآخر والذي كان ميتًا بالفعل.. تسمرت أمها في مكانها لبرهة.. ليلى تبدو غير واعية.. فلم تنهرها أو تعنفها، فقط أخذتها من يدها برفق، وأعادتها إلى سريرها.. وفي الصباح فوجئت ليلى بالعصافير ميتة، بكت بحرقة، فاحتضنتها أمها مهدئة.. صغيرتها لا تتذكر شيئًا.. فآثرت الاحتفاظ بالأمر لنفسها وإن امتنعت عن شراء عصافير أخرى، ولم تخبرها بالأمر إلا مصادفةً.. فانهارت باكية غير مصدقة..

فهي تحبهم.. كيف لها بقتلهم.. غير أن والدتها فسرت لها الأمر بعد أن سألت أحدهم.. هي تحبهم بالفعل، ولفرط حبها لهم كرهت تقييدهم.. ظنت أنها بهذا تطلق سراح أرواحهم.. أنها بقتلهم تحررهم"

***

تكومت على نفسها.. وهي لا تكاد ترى من بين دموعها، تتخيل أسوأ السيناريوهات على الإطلاق، أن تعلم صديقتها بخيانتها.. بما ستعلل الأمر، بماذا ستخبرها، هل تخبرها أنها كانت حمقاء أم أنانية، أتخبرها بأنها كانت تشعر بالغيرة منها أحيانًا، أم تخبرها أنها لوهلة تمنت خالد زوجًا لها هي؟ لمَ كانت ليلى تملك كل شيء ونور لا تملك شيئًا؟ لم هي دومًا النجمة والمشهورة، أما هي فنكرة؟

علي الرغم من أن دورها لا يقل عن دور ليلى في البرنامج، إلا أن الفرق أنها كانت وراء الكواليس، أما ليلى فهي من لهث عبد المجيد للتعاقد معها بالمبلغ الذي طلبته، هي من جلست تملي شروطها، هي دومًا المفضلة عند الجميع، حتى في الهجوم.. هي أيضًا المستحوذة على الترينند..

نهضت نور من مكانها، وبدأت تحادث كائنًا وهميًا وكأنها تتخيل ليلى أمامها..

- لمَ يا ليلى، أي عدل هذا، هل يعقل أنك تحظين بكل شيء، وأنا أخسر كل شيء؟ زيجه فاشلة.. أهل يرفضونني.. في الكواليس..

أما أنتِ، زوج يحبك، ناجحة، قوية، مشهورة، إن لم يكن لديك أهل، فالموت هو من انتزعهم وليس هم من لفظوكِ، أي عدل هذا، أنا لم أفعل شيئًا، جريمتي أنني حاولت أن أكون سعيدة، أن أتذوق مما تنهلين منه ليل نهار، وللحق كان زوجك كريمًا وشهمًا، غير أن سحرك تغلب ثانية، فلفظني..

بلا وعي، التقطت نور منفضة السجائر وقذفت بها المرآة، وكأنها تتخلص من شبح ليلى، وجلست تنتحب بصوت مسموع.

***

مضت الأيام التالية باردة، بطيئة مملة، تغيروا جميعهم..

ليلى فقدت حماسها للعمل.. تحيا في روتين بلا شغف وبلا بهجة حقيقية.. فقدت حياتها بريقها وزهوتها.. تحولت إلى ترس في ماكينة الحياة بلا أي فائدة أخرى..

ونور، فقد انطفأ بريق عينها اللامعتين دومًا.. خائفة من مغبة ما فعلت.. تحاول تجنب ليلى..كمن يخشى افتضاح أمره..

أما رامي فاختلافه لا تخطئه عين.. نظرات عينيه هو الآخر تشي بصراع يدور بداخله.. تشي بخوف أو قلق.. ربما ندم!!

ليلى خائفة متوجسة.. كرهت منزلها.. أصبحت تخشى العودة إليه.. تقضي يومها بأكمله خارجًا.. حتى عزمت على مغادرته إلى منزل والديها.. كانت تجلس بصحبة رامي ونور في إحدي الكافيهات القريبة من منزلها، ارتشفت رشفة من الفنجان الممسكة به.. وحدقت في الفراغ.. أعادت الفنجان إلى المائدة ونظرت إليهم.. طال صمتها حتى خرج صوتها واهنًا:

- أنا مش قادرة فعلًا اعيش كده.. أنا راجعه المهندسين.. أعصابي تعبت.

غلف الصمت ثلاثتهم.. حتى قطعته نور:

- طيب ما تيجي تقعدي معايا.. ما انا كمان لوحدي.

هزت رأسها بالنفي ثم أضافت:

- أنا محتاجة ابعد واقعد لوحدي شوية.. أنا حتى هاعتذر عن حلقة الأسبوع الجاي.. أنا هاسألكو سؤال وأرجوكوا تجاوبوا بصدق.

صمتت قليلًا ثم أردفت:

- هو أنا مجنونة؟ طيب أنا وحشة؟ أستاهل يعني كل اللي بيحصلي؟

أمسكت نور بيدها والتمعت عيناها بدمع حبيس:

- إوعي تقولي كده..

بكت ليلى في صمت، فوجَّه رامي إليها الحديث.. ربما تلك المرة الأولى منذ ساعتين التي تسمع فيها صوته:

- انتِ ست العاقلين وست الستات، بس عارفة.. ساعات ممكن نتحاسب على حاجة عملناها واحنا مش عارفين!

كانت جملته غامضة، وكأن الموقف يتحمل غموضه.. فتطلعت إليه كلتاهما مستفهمتين.. فأشاح هو بوجهه بعيدًا، وأمسك بفنجانه يرتشف منه في هدوء.

***

رن هاتفه بالنغمة المميزة للرسائل.. ففتحها بلا مبالاة.. إلا أن العنوان المرفق جذب انتباه.. فاستأذن من ضيوفه وانسحب بعيدًا عنهم، وبينما ينتظر اكتمال الفيديو.. كان يحدق فيمن حوله.. وكأنه ينظر إليهم للمرة الأولى، فما كانوا إلا أبواق المعارضة الشهيرة.. اجتمعوا بترتيب لقاء من ذلك البرلماني في ذلك الفندق المطل على نيل القاهرة.. وأحيط لقاؤهم بالخصوصية والسرية.. فمن يصدق أنه هو من يهاجمهم يجلس بصحبتهم الآن.. ولكن تلك هي السياسة.. خصوم اليوم حلفاء الغد، والعكس أيضًا جائز..

اجتاز الطاولات إلى الخارج، لعل استقبال الانترنت يتحسن.. شذى الڤانيليا يغمر المكان.. تفحصت عيناه الجميع على ضوء الشموع الخافته.. تأخر الفيديو..

تطلع إلى الثريات الذهبية المدلاة، وتلك الأباليك المعلقة، وإلى ذلك البار في آخر المكان.. لم يكتمل الفيديو بعد.. تحسس بيده الحائط المجلد بالخشب.. وغاصت قدمه في السجاد الوثير الناعم.. أوشك الفيديو أن يكتمل.. تطلع إلى المرآة التي احتلت كامل الجدار.. من هذا الذي بجواره؟ عجوز في حله رمادية أنيقه وكرافتة سوداء ورأس صلعاء إلا من بضع شعيرات بيضاء متناثرة اختلطت بما تبقى من سوادها.. وكرش يتصدر المشهد.. لاح له شبح والد زوجته الراحل.. أيعقل هذا؟ وكلما اقترب أكثر كلما اتضحت له الصورة.. إنه هو.. صورته هو.. أيعقل هذا؟ كيف استحال إلى نسخة منه؟ نفس طريقته في السير.. إمساكه بالسيجار.. هو نسخة باهته منه.. وكأنه تشرب طريقته وعجرفته دون أن يدري.. تحول إلى مسخ.. سعيه إلى القمة.. إلى السلطة والنفوذ، أفقداه هويته.. سلباه روحه.. ولم يمانع أبدًا.. أضحى فارغًا هشًّا.. فقد جزءًا من روحه يومًا بعد يوم، حتى ما عاد يتعرف على نفسه.. علا نجمه كثيرًا.. ومعه ازدادت مواطن ضعفه..

اكتمل الفيديو.. ضغط زر التشغيل.. وهو لا يكاد يصدق ما يرى.. ليلى!!
أيعقل هذا الأمر؟ ومع كل ثانية في الفيديو؛ كان خفقان قلبه يعلو..
كيف يا ليلى.. ولمْ؟
ومن أرسل له به.. أيذيعه الآن أم ماذا؟ أيرسله لها، أم يحذفه؟!
عشرات الأسئلة طرحت نفسها عليه بقوة.. أجل حسم الأمر لما بعد انتهائه من اجتماعه.. وإن أخفى الفيديو في ملفٍ سريٍ على هاتفه.. ريثما يعود إلى مكتبه ليضيفه بجوار عشرات الفيدوهات المماثلة .

***

أما ليلي ، فقد نفذت قرارها بالذهاب إلى منزل أسرتها، بصحبة زينب.. أوصلها رامي إلى المنزل، مبنى مكون من طابقين.. بدا غير مرئيٍ مع الارتفاع الشاهق للمباني المجاورة.. نزلت ليلى من السيارة متطلعه إلى المكان بهدوء...وكأنها تراه للمرة الأولى.. أخبرته أن شقتهم بالأسفل.. وبالأعلى شقة لعمٍ لها سافر منذ زمن وانقطعت أخباره..
اجتازوا الحديقة ببطء وصمت لم يقطعه سوى صوت الأوراق الجافة وأغصان الشجر المتكسرة أسفل أقدامهم.. فتحت ليلى الباب فأصدر صريرًا مزعجًا.. أضاءت المنزل، ولم يتفاجأ أي منهم بأطنان الأتربة التي استقبلتهم.. فالمنزل مُغلقٌ منذ سنوات..

وضعت زينب الحقائب أرضًا.. في حين غادر رامي لابتياع بعض الأشياء الضرورية كالمياه وبعض المعلبات وما شابه.. وبمجرد رحيله تخلت ليلى عن رونقها ووقارها مرغمةً غير مخيرة، ارتدت بيجاما، وغطت شعرها بإيشارب خفيف، فتحت نافذة غرفتها بحثًا عن رائحة اعتادت عليها هنا.. رائحة الياسمين المنبعث من حديقة جيرانهم الصغيرة.. غير أنها فوجئت أن أصحابها استبدلو ياسمينها بكتل خرسانية صماء ترتفع لعشر طوابق.. انحفر الأسى على وجهها.. ها هي تفقد جزءًا آخر من ذكرياتها، وكأنها تتعمد التسرب من بين يديها.. هزت رأسها في أسى حقيقي.. صحيح لا شيء يبقى على حاله أبدًا.. أغلقت الستارة بعنف وكأنها المسئولة عن وجعها، وانهمكت في ترتيب المنزل مع زينب..

بدأت بغرفة والديها.. وقفت على عتبتها والرهبة رفيقتها، بنظرة واحدة _وبرغم الأتربة_ تعرفت على ملامحها التي لم تنسَها أبدًا.. اللون البني هو السائد.. دخلت بتردد، وإن لم تستطع التخلي عن عادتها الطفولية أبدًا.. إذ كتبت اسمها على المرآة، وفتحت دولاب أمها.. تطلعت إلى ملابسها المتروكة كما هي منذ أن غادرتها.. أمسكت بملابسها.. استنشقت رائحتها بقوة.. أغمضت عينها قليلًا واحتفظت برائحتها في صدرها طويلًا.. وكالرضيع الذي يسكن برائحة أمه كانت هي.. سكنت روحها وهدأت..

عاد رامي بعد ساعتين حاملًا أكياسًا بلاستيكية.. فالتقطت ليلى منها زجاجة مياة مثلجة، وجلست أرضًا مستندة على الحائط لتلتقط أنفاسها، تطلع إليها ضاحكًا، فأشارت إليه بيدها أن يغادر:

– امشي دلوقتي.. الدنيا على بعضها..

أزاح بيده الغبار من على أنفها:

– شكلك حلو وانتِ كده.. صورة بقى وتنزل على النت.. تخيلي!!

ضحكت لدعابته.. ونظرت تجاهه بامتنان حقيقي.. ممتنة هي لوجوده.. لحضوره.. لابتسامته.. ممتنة للأمان والثقة التي منحها وجوده إياهم.. لتلك النظرة الصادقة التي تطل من عينيه الآن.. ممتنة لمساندته إياها بلا غرض أو هدف..

غادر هو ونهضت هي لمتابعة مهمتها الشاقة.. وبعد عشر ساعات أو يزيد.. استعاد المنزل ولو قليلًا من رونقه.. أنارت ليلى الأضواء بأكملها، وتطلعت إلى المنزل ثانية، عاد إلى بهائه.. وإن لم تعد له روحه التي فارقته أبدًا.. وكأنها غادرت مع أرواح قاطنيه.

اغتسلت ليلى.. وجلست مع زينب وعلامات الإرهاق بادية على كلتاهما.. تطلعت ليلى إلى زينب الجالسة أمامها في صمت.. لأول مرة منذ سنوات تطيل النظر إليها، شعرت بها قريبة.. طوال عمرها لم تعاملها بود أو عجرفة..

كانت معاملة عادية، باردة.. وإن غلفها الاحترام.. أما اليوم فتشعر بها مختلفة.. وكأن حزنها ووجعها، أو ربما خوفها.. أزال الغشاوة من على عينيها، فرأت الدنيا من زاوية أخرى..

طلبت بيتزا لهما.. وتجاذبتا معًا أطراف الحديث قليلًا.. تفاجأت أنها لا تعلم عنها الكثير.. أو لا شيء من الأساس.. حتى أنها لا تذكر كيف استقدمتها.. وبرغم كل هذا تشعر بالامتنان لوجودها طوال تلك المدة.. تفحصت ملامحها للمرة الأولى.. ملامح مصرية عادية، قد لا تلفت انتباهك للوهلة الأولى، إلا أن الأسى المحفور عليها بقوة يدفعك لالتفاتة ثانية للتمعن بها:

- انتِ عمرك ما كلمتيني عن حياتك يا زينب!!

نظرت إليها زينب غير مستوعبة الأمر، فمنذ متى يهتم بها أحد، تنهدت بأسى واعتدلت.. انطلقت تحكي وكأنها تريد التخلص من أحمال أثقلت كاهلها:

- وهي حياتي فيها إيه يتحكي يا مدام، أنا من بلد أرياف.. وعادتنا بنتجوز صغيرين ومش مهم نتعلم.. مش مهم أي حاجة، المهم نتجوز.. لما شُفت حلقتك الأخيرة يا مدام عن جواز القاصرات.. قُلت ياريتك سألتيني..

المهم.. أنا رفضت الحاجات دي.. أمي وقفت جنبي وساعدتني وكملت تعليمي واشتغلت، وقابلت إنسان كويس، أو كنت فاكراه كده.. اتجوزت

وخلفت ٥ بنات، كل مرة كنت باخلف بنت؛ جوزي كان بيهددني انه هيطلقني لو ماخلفتش الولد، لحد ما بقى معايا ٥ بنات، آخر مرة حملت قاللي لو بنت اعتبري نفسك طالق، والحمد لله كان ولد، بس طلقني برضو..

نظرت إليها ليلى غير مستوعبة، فتابعت زينب بعين مغرورقه بالدموع:

- بعد ما خلفت قُلت خلاص الحمد لله، الدنيا هتهدا.. بعدها بفتره اتغير ومابقتش حاجة عاجباه، دايمًا بيزعق، مش طايقني ولا طايق البيت ولا حتى العيال، قُلت ده معمول له عمل أكيد، رُحت زُرت الأوليا، ورُحت لشيوخ، وماعندوش علة.. حتى مبقاش يقرب مني..

كل ما احكي لحد يقوللي جوزك مربوط.. حاولت كتير أوي.. بس هو مكانش طايق يبص في وشي..

ارتفع نحيبها بقوة.. فالتقطت كوب ماء، رشفته ببطء وتابعت:

- لحد ما في يوم دخل عليا البيت، وقاللي انتي طالق، مافهمتش فيه إيه، بس بعدين فهمت.. عرف بنت صغيرة بتاعة ١٧ سنة كده، لافت عليه وشرطت عليه يطلقني علشان ترضى تتجوزه.
- وجوزك يعني فيه الطمع؟ دي ١٧ سنة، يعني طفلة.. هتاخد واحد داخل على الـ٤٠ ومعاه نص دستة عيال ليه؟!

أمالت زينب رأسها إلى الوراء قليلًا.. واعتدلت ثانية.. تنهدت طويلًا.. وكأنها بهذا تهدئ قليلًا من نزيف قلبها وتابعت:

- عنده عربيتين مشغلهم تاكسي.. غير شغله الأساسي.. الزمن اتغير يا مدام.. البنت مايهماش تاخد راجل من بيته وعياله، المهم تتجوز.

البنت صغيرة والشباب له سحره.. وانا اتهديت.. العيال بتهد.. الهم بيعجز.. عارفة يا مدام يعني إيه ٦ عيال صغيرين ملزومين منك؟ وبيت مفتوح بكل حاجته.. ده حمل يهد جبال!

أنا ماعرفش هي عملت فيه إيه.. نسته عياله.. رمى كل حاجة ورا ضهره.. بيدفع المصاريف بالعافية.. والواد اللي كان بيترجاه من الدنيا، ولا سأل فيه ولا يعرف عنه حاجة.. الشغل عند حضرتك دا كان نجدة من السما.. أمي قاعدة معايا في البيت بتراعي الولاد طول ما انا مش موجودة.. وأهي ماشيه بالستر.

تباينت مشاعر ليلى ما بين الشفقة على زينب والغيظ منها وكراهية زوجها.. ودت لو صفعت تلك الغبية، كيف لها أن تخضع له؟ سمحت له بإنهاكها.. أجبرها على الإنجاب ليحظى بالولد دون أدنى اعتبار لصحتها.. دون أن

يدرك أن إنجاب الذكور أو الإناث إنما هو رزقٌ من الله.. وأخيرًا لفظها لأجل رغبة تملكته!!

هي ليست ضـــد الزواج الثاني، كما أنها لا تحبذه أيضًا في نفس الوقت، لكن الأمر لا يتعلق بتلك الفكرة، الأمر كله منوط بالظلم الواقع على زينب وأطفالها، وكيف لها أن تتحمل مسئولية نصف دستة من الأطفال بمفردها، كيف لها أن تقاوم المجتمع وهي امرأه مطلقة، موصومة في نظر هذا المجتمع الذكوري الذي لا ينصفها!!

كيف له أن يسلبها حقها في الزواج مرة أخرى؟ فإن رضي أحدهم بالارتباط بها ومعها هذا العدد من الاطفال؛ فحضانتهم ستُسلب منها، أيُّ عدلٍ هذا، أصبحت امرأة درجة ثانية في مجتمع ينهش أفراده بلا هوادة ولا رحمة!!

قطع تركيزها جرس الباب، نهضت زينب، ناولتها ليلى النقود.. عادت زينب ومعها البيتزا، وجلست ليلى تأكل بلا ذائقة حقيقة.

***

غادرت زينب ونامت ليلى في هذا اليوم بعمق، لم تعرف هل هو التعب أم الراحه التي اكتنفتها هنا، أهي روح والديها التي أحاطت بها؟ أم هو الحنين، أم الأمان، أم ماذا؟

لم تكترث بالتفسير، يكفي أنها استيقظت وهي تشعر بعودة روحها إليها.. أعدَّت كوب النسكافيه وجلست بمفردها تتأمل المنزل ثانية كما لو أنها لم تشبع منه أمس، أو أنها تتأكد من وجودها به..

تنظر إلى الصور على الجدران.. صور لأبيها وأمها في زفافهم، وهذه لها وشقيقتها، وتلك يوم تخرجها، وكأنها تشاهد عرضًا سينيمائيًا لحياتها.. فاجتاحها الحنين لأيامٍ ولَّت..

مر الوقت ببطء.. تتنظر رامي وربما نور.. بعد ساعات رن جرس الباب معلنًا انتهاء وحدتها ولو مؤقتًا..

وصلت نور أولًا.. تلك مرتها الأولى التي تدخل فيها ذلك المنزل.. فأعاد إليها الحنين لبيت أبيها..

دقائق ولحق بها رامي..

جلسوا ثلاثتهم صامتين.. نور تتطلع إلى المكان، ورامي يتطلع إلى ليلى:

- ده أكيد أخد منك مجهود جبار.. ده اتغير خالص!!

أومات برأسها دون رد.. وغلفهم الصمت ثانية.. قطعته نور تلك المرة:

- أنا لسه راجعة من الاستديو.. عبد المجيد رافض تمامًا انك متطلعيش هوا.. كان متعصب جدًا الصبح، لازم ياليلى تركزي في حياتك بقى.. احنا ما صدقنا انك رجعتي.

تتحدث نور، وليلى غير منتبهة.. لاحظ رامي شرودها وتركيزها.. فأشار لنور أن تتبعه مغادرة.. بُهِتَت ليلى.. فما مر إلا دقائق:

- انتوا لحقتوا يا رامي؟!

- هاجيلك تاني.. بس في حاجة المفروض اخلصها انا ونور ولسه فاكرها حالًا.

جذب نور مسرعًا دون حتى أن يمنح ليلى فرصة توديعها.. في حين كانت هي غير مستوعبة الأمر!!

وما أن ابتعدوا عن المنزل.. حتى التفتت إليه نور غاضبة:

- انت مجنون.. فيه إيه؟

علا صوته مشيرًا إلى السلسلة:

- انتِ غبيه يا نور؟ رايحة لليلى بيها.. انتِ قاصدة يعني؟

تسمرت نور في مكانها.. لم تنتبه إلى الأمر.. تذكرت شرود ليلى.. شعرت بقبضة باردة تعتصر قلبها بلا رحمة.. حتى كادت أن تخنقها.. فشهقت في رعب:

- تفتكر لمحتها؟

- ماعرفش.. انا هارجع لها بعد شوية.. مش المفروض بنخلص شغل سوا؟ أما اشوف غبائك ده هيوصلنا لفين!

نظرت إليه بعين ملأها الشكر، فاستنكر منها تلك النظرة.. متابعًا:

- إوعي تفتكري إني خايف عليكِ، انتِ ولا تفرقي معايا، أنا خايف عليها، هي مش حمل صدمات جديدة.. بعد إذنك.

***

بقيت ليلى على شرودها عقب مغادرتهم، وتلك الصورة لا تفارقها.. هي لا تهذي قطعًا.. لن تخطئ أبدًا في تمييز شيء التصق بها قرابة عامين.. تلك القلادة نسخة من التي ترتديها!!

كيف لها ألا تلحظها مسبقًا، هل تهذي أيضًا؟ هي متأكدة!

أمسكت برأسها بين يديها باكية.. أوصلت لتلك الدرجة؟!

أعصابها ثائرة.. حتى ذلك المهدئ ما عاد يجدي نفعًا معها.. نهضت من مكانها وغسلت وجهها، تشعر بالدم يتدفق في عروقها حارًا.. حارًا جدًا، حاولت تجاهل الأمر.. بدأت في إفراغ حقيبتها لعلها تنسى معها أفكارها.. التقطت علبة ملقاة في ركن الحقيبة.. تطلعت إليها لثوانٍ غير مستوعبة

ماهيتها.. تذكرتها.. تلك هدية رامي لها.. يا الله..كيف نسيتها طوال تلك المدة.. تسارعت وتيرة الأحداث بشكل مرعب أنساها حتى أن تفتحها.

فضتها بلهفة حقيقية، ارتفع حاجباها في دهشة حتي كادا أن يرتطما بمنابت الشعر.

فبداخلها استقرت سلسلة تحمل اسمها كاملًا.. أمسكتها برفق ممعنة النظر إليها، تباينت مشاعرها بقوة، بين تلك الرابضة على صدرها والأخرى التي بين يديها، وأخيرًا قررت..

حلت تلك محل سلسلة خالد.. تطلعت إلى نفسها في المرآة غير مصدقه فعلتها.. لأول مرة منذ ألبسها إياها خالد تنزعها.. حدثت نفسها بأن الأمر لا يعني شيئًا.. فقط تجربة لا أكثر.. وإن خُيِّل لها أنها ترى خالد وتسمعه وهو يعيد عليها جملته:

– "بس خلي بالك.. لو لبستيها ماينفعش تقلعيها.. الرابط بيتكسر"..

تسمرت في مكانها.. غير أنها ألقت بالأمر في ركن مهمل في عقلها.. فهو لا يعدو كونه مزحة من خالد.. أراد فقط إضفاء هالة التقديس على هديته.. أكملت ترتيب دولابها وإن ظلت عبارته تخمش خلايا مخها بعنف.. لمحت

فستانًا أزرقًا مُلقى بإهمال.. مدت يدها والتقطته متطلعةً إليه.. فستان خطبتها!

وكأن قدرها يعاندها.. على صدرها استقرت سلسلة رامي وبين يديها فستان خالد!!

مدفوعة برغبة لا تفهمها.. ارتدته.. تطلعت إلى نفسها في المرآة.. فارتسمت ابتسامة رضا على وجهها، صحيحٌ أنه أصبح ضيقًا بعض الشيء، إلا أنه أبرز منحنياتها بدقة.. بدت كفينوس بتلك الأرداف الممتلئة والخصر النحيل وشعرها الذي رفعته فكشف عن عظمتي ترقوة ساحرتين..

أمسكت بعطرها ورشت منه بضع بخات انسابت بوداعة حتى منبت صدرها.. رن الجرس فارتبكت، حاولت تبديل ثيابها مسرعة إلا أنه رن ثانية فلم تجد بدًا من أن تفتح الباب هكذا.

تطلع إليها رامي دون أن يرمش.. أما هي فالتبسها الخجل.. فوقفت بلا حراك.. بدت وكأنها لقطة لفيلم يعرض بالتصوير البطيء.. إذ امتدت يده المرتعشة لتلتقط السلسلة المستقرة على صدرها وبصوت خنقه الانبهار:

– ماكُنتش عارف انها هتكون حلوه عليكي كده!

لمسة يده لجسدها أشعلت رغبة بداخلها، فتراجعت خطوة إلى الوراء مغمغمة:

– انت مشيت ليه، ورجعت ليه!

أمسك بيدها إلى الداخل مجيبًا:

– وحشتيني.. أظن سبب كفاية، ولَّا محتاج كلام تاني؟

توردت وجنتاها وسبقته إلى الداخل.. اختارت كرسيًا في مكانٍ قصيٍ عنه، فجلس بقربها.. اجتاحتها تلك المشاعر ثانيةً.. صوت يعلو بداخلها: "يا الله..لن أتحمل"..

قلبها ينتفض بين ضلوعها.. معلنًا ميله عن خالد إلى ذلك الجالس بقربها.. وهو الآخر.. اندفع سيل من الأفكار والهواجس بداخله.. يرغبها وبشدة.. يخشى عليها ومنها!!

كلاهما يقاوم.. كلاهما يحاول ولكن.. ما من شيءٍ تمنعه بقوة واستمرار، إلا وانفجاره يكون أعنف وأشد..

اقترب منها.. فلم تبتعد عنه.. تلاقت الأعين في نظرة طويلة.. حكاياتٌ شتَّى نسجت في تلك النظرة التي التهم كل منهما الآخر بها..

اقترب منها برفق.. فمالت عليه هي الأخرى.. بتردد بحث كلاهما عن الآخر.. حتى التقت شفاهما في حديثٍ طويل.. نهل كل منهما من الآخر حتى ارتوى.. ابتعدت عنه فجأة محاولة لملمة شتات نفسها المبعثرة.. تخشى الأمر، تخشى تطوره، تعلم نهايته ولا تريدها.. ساد صمتٌ ثقيل.. قطعه هو:

– هنفضل ساكتين كده؟!

تحاشت النظر إليه مجيبة:

- رامي من فضلك، ياريت ننسى اللي حصل ده.

اقترب منها.. وجلس أمامها أرضًا.. أمسك بيدها وتطلع إلى عينها فأشاحت بنظرها بعيدًا عنه..

- ليلى.. بُصِّيلي وأنا باكلمك.. بلاش الطريقة دي.. ليلى..

تطلعت إليه بعين التمعت بدمعٍ حبيس، فتابع هو:

- ليلى.. أنا بحبك.

***

هامت نور على غير هدى.. وإن اعتراها الخوف مما حدث.. كادت أن تصدم أحدهم.. وانتبهت قبل بضع سنتيمرات، وإن اخترق سباب الجميع أذنيها.. فرفعت الزجاج المجاور وانطلقت مسرعة لا تلوي على شيء.. فقط تسير بلا هدف.. اختلقت شخصًا وهميًا يجلس بجوارها:

- عارف يا.. انت اسمك إيه؟ علي.. عارف يا علي.. أنا عاوزة أقولك كلام كتير.. وعارفة انك مش هتقاطعني.. بتبص لي كده ليه؟ لا أنا مبعيطش.. اسمع بس..

أوقفت السيارة.. وضغطت زر الانتظار واعتدلت مخاطبة ذلك الكائن الوهمي:

- مابقتش عارفة أنا فعلًا بحب ليلى ولا بكرهها، عارف.. ساعات بتصعب عليا، وساعات بفرح فيها.. انت مستغرب، لا متستغربش أصل انا مش ملاك.. وهي برضو تستاهل.. اسمعني انا اللي اتوجع بس.. طيب اقولك حاجة كمان؟ أنا تعمدت البس السلسلة دي النهاردة.. عاوزاها تعرف انها ست زي أي ست، وان ممكن جوزها يخونها عادي.. هي مش مميزة يعني، وان انا مقلِّش عنها حاجة، بالعكس.. ده جالي وهو معاها، يعني مش مالية عينه ولا قلبه.

وأتبعت كلماتها بضحكات تخللتها الدموع!!

***

مر الوقت بها بطيئًا وهي على حالتها.. حتى خُيِّل لها أن دهرًا قد انقضى.. إلا أن دفء فراشها يخبرها بالعكس، ورائحته التي التصقت بها.. رامي كان هنا.. يبث الحياة ثانية في قلب ظنت أنه ما عاد صالحًا للحب.. لم تنتبه وقتها لما حدث إلا بعد أن هدأت ثورة مشاعرها.. فابتعدت عنه مذعورة.. متطلعةً إليه وكأنها تراه للمرة الأولى.. أيعقل هذا؟ هي ورامي.. هكذا؟ وما بين الإنكار والسعادة، تباينت مشاعرها وسقطت في حيرتها.. بأي عين سيراها

بعد الآن.. هل سيكنُّ لها احترامًا كذي قبل؟ أم سيراها رخيصة استسلمت له ببساطة؟!

انحدرت دمعة ساخنة على خدها فأحرقتها.. يا لك من مسكينة يا ليلى.. فالفرح في غير وقته تعاسة، وهمٌ وحملٌ ثقيل.. هل تعجلتِ؟ رن هاتفها.. فألقت نظرة غير مكترثه عليه.. "رامي"..

تجاهلت الرد وكأنها تتجاهل ما حدث.. نهضت من مكانها إلى الحمام..

تجردت مما تبقى من ثيابها.. وخطت تجاه البانيو.. وتركت الماء الساخن ينسال عليها، ازدادت سخونته فجأة، فأطلقت آهه مكتومة، وانساب الدمع من عينها غزيرًا، وكأن تلك القطرات الساخنة نكأت الجرح بقوة.

***

استقل رامي سيارته عائدًا إلى منزل أبيه، مازال يحاول الاتصال بها بلا جدوى.. يعلم ما يجول بخاطرها الآن.. ود لو طمأنها.. ود لو أخبرها أنه يحبها ويحترمها.

ليعترف بالأمر إذن.. لقد أحبَّها.. بالرغم أن كل هذا لم يكن مقدرًا له الحدوث، إلا أنه حدث.. فمن منا يملك مفاتيح قلبه؟

لم تفلح نسمات الهواء الباردة في تهدئة النار المتأججة بداخله، تلك التي شطرت روحه إلى نصفين متصارعين.. وهو بينهما حائر!

قلبٌ يريد.. وعقلٌ لا يريد.. وإن رجَّح هو كفة قلبه.. يريدها.. ليعترف بالأمر إذن.. نعم يريدها.. احتلت روحه.. ما يشعر به الآن حقيقي.. خفقان قلبه.. تسارع نبضاته.. خوفه عليها من هواجسها..كلها أشياء تخبره أنه وقع صريعًا للحب..

تنهد بعمق.. سئِم الأمر كاملًا.. آن الأوان لينتهي كل هذا الهراء.

***

"لا شيء ثابت في تلك الدنيا" هكذا الحال بين الجميع.. فنور وليلى تبدَّل بهم الحال بلا سبب.. ليلى لا تفهم سر انعزال نور وكآبتها الواضحة.. حاولت الحديث معها كثيرًا بلا جدوى..

أما رامي وليلى؛ فحدِّث ولا حرج.. ليلى تتعامل معه بغرابة لا مبرر لها.. فبرغم أن ما حدث بينهما من المفترض أنه أزال كل الحواجز؛ إلا أن العكس هو ما حدث.. تجنبت لقاءه قدر الإمكان.. وتجاهلت جميع اتصالاته.. حاول الانفراد بها كثيرًا بيد أنها لم تمكنه.. ذهب إلى منزلها فلم تفتح الباب..حتى ضاق بالأمر..

فاستوقفها ذات يوم قبيل مغادرتها.. سد عليها باب سيارتها بكامل جسده.. فنظرت تجاهه مستريبة، فبدأ في الكلام بلهجة مسرعة.. خشية ردة فعلها:

– احنا لازم نتكلم.. أنا مش فاهم مالك وبتعملي معايا كده ليه؟

تطلعت إليه بأعين خاوية.. هي نفسها لا تدري ما بها.. خطبٌ ما أصابها.. خللٌ ما اعتراها.. مشاعرها مضطربة.. لا تعلم صدقًا ما الأمر، إلا أن هذا الشعور يتملكها يومًا بعد يوم.. شعور يسمي الحدس.. وحدسها يخبرها بخطأٍ ما في الجميع وتجاه الجميع!!

– ليلى أنا بكلمك.. من فضلك ردي عليا، بلاش تقفي ساكتة كده!!

زفرت في ضيق مجيبة:

– هنقول إيه يا رامي؟ خلاص مفيش حاجة تتقال بجد.

– لا يا ليلى فيه كتير.. أنا فعلًا عاوز اتكلم معاكي..

لمح نور مقبلة تجاههم فأدار دفة الحديث بعيدًا:

– بالنسبه لموضوع الشواذ ده، هاعرف التفاصيل بكره بالكتير وهاقولك، يالَّا سلام.

لم تفهم ليلى ما الأمر.. لم تفهم إلا عندما أقبلت نور تجاهها ملتقطةً طرف الحديث ومتابعة:

- أنا معايا تقرير كامل عن المركب ده والناس اللي فيه، وكنت هاكلمك لأن لازم نذيع قبل ما أي قناة تانية تعرف، ده سبق يا ليلى.

أشار لها رامي بيده إشارة تعني التريث، وإن تخلل صوته نبرة حسم لا تخطئها أذن:

- استني يا نور.. ماتعمليش أي حاجة، أنا لسه هتأكد، ليلي افتكري كلامي كويس.. يالَّا سلام.

تابعته كلتاهما وهو يستقل سيارته مغادرًا حتى اختفى عن أعينهم، فالتفتت ليلى إلى نور متابعة:

- عارفة؟ هو عنده حق، وكما أنا مش متحمسة للموضوع ده أساسًا.

نظرت لها نور غير مصدقة.. أتلك ليلى التي تتحدث الآن؟ تلك التى لم تتورع أو تتردد عن إذاعة أي شيء في سبيل تحقيق مجد شخصي، تتراجع الآن!! وبنبرة مليئة بالاستنكار وصوت بدا غاضبًا وإن حاولت تمالك أعصابها نهرتها:

- انتِ بتتكلمي جد؟ مش متحمسة ازاي يعني؟!

صمتت ليلى قليلًا وكأنها تستوعب طريقه نور ولهجتها الغريبة.. فمنذ متى نور تخاطبها هكذا! منذ متى أحدهم يناقشها من الأساس، التقطت نفسًا عميقًا وزفرته في بطء شديد لتهدئ من انفعالاتها.. فخرج صوتها هادئًا:

– علي رأي رامي، اللي نفع زمان مش ضروري ينفع دلوقتي، زمان كنا صغيرين، دلوقتي انا كبرت وإسمي ومركزي مايسمحش..

نظرت إليها نور بنظرة حملت استنكار الدنيا جميعها، تغيرت ليلى، تبدلت، ما عادت تلك المجنونة الجامحة، بدَّلهَا رامي، أو بالأحري استولى عليها، وصدمتها ليلى أكثر حين تابعت:

– بصي.. أنا هاستنى رأي رامي، وعلى أساسه هاقولك هنذيع ولا هنعمل إيه.

لم تستطع نور الإجابة، مزيج من المشاعر اجتاحها.. حنق وغضب من ليلى..كراهية لرامي.. استولى على ليلى تمامًا.. يحركها كما يشاء وكيفما يشاء.. نظرت إليها ثانية لعلها تلمح فيها تراجعًا أو حتى اضطرابًا، إلا أنها كانت ثابتة.. أتلك هي ليلى حقًا؟!

المرأة الواثقة الآن.. هي نفسها ليلى المرتعشة منذ أشهر خلت.. أيعقل أن تسلم زمام نفسها لأحدهم.. أين ليلى التي عرفتها.. أفَقَدَت رشدها بفعلٍ ما جابهته في الأشهر القليلة المنصرمة، أم ماذا؟!

- يالَّا يا نور تصبحي على خير، أنا ماشية.

انتفضت هي في عنف مع كلمة ليلى.. الأمر حقيقي إذن! تبدلت تمامًا.. أدركت نور أنها بصدد خسارة ليلى.. أو ربما فقدتها بالفعل.. لا تعلم.. ولكن لماذا؟

كيف يتحكم بها رامي بسهولة؟ حتى خالد نفسه لم يفعلها.. أي سر، بل أي سحر تملكه يا رامي؟

تابعت ليلى وهي تستقل سيارتها مغادرة، ومع كل ثانية تمضي كان الضيق يستولي على نور، والعجز أيضًا.. أو ربما الحقد.. حقدٌ من تحكم ليلى في مقاليد الأمور، رأت الحقيقة الآن واضحة، مهما ادَّعت أنها صديقتها، إلا أن ليلى هي الآمرة، لا شيء يتم أبدًا بدون رضاها أو رغبتها، أهكذا الأمر إذن؟ أفنيت عمري معكِ، والآن يحدث هذا؟

لم تعلم ماذا تفعل.. هي بحاجة لأحدهم.. التقطت هاتفها.. عبثت بالأرقام المكتظة بها بلا فائدة.. حتى لمحت اسم كريم.. ذلك الكائن الغريب الذي لم تلتقِه منذ زمن.. فقط مكالمات بين الحين والآخر.. ضغطت زر الاتصال وطال الجرس حتى انبعث صوته أخيرًا:

- نور.. ازيك.

- بقى كده يعني ماتسألش عليا خالص!

ضحك ساخرًا، فهو يعلم جيدًا أنها ما اتصلت إلا لشيء هام، فتابع:

- عاوزة إيه يا نور؟
- عاوزة اشوفك دلوقتي.
- امممممم.. دلوقتي.. صعب أوي، طيب إيه رأيك بكره الساعه ٦ في نفس المكان اللي كنا بنتقابل فيه زمان؟
- أي مكان.. مش فاكرة أوي!
- هابعتلك لوكيشن.. سلام.

ظلَّت ممسكة بالهاتف للحظات.. مرق خلالها لحظات جمعتها به، وكأن ذكرياتها تدفقت جرعة واحدة، كريم صديق دراستها وجارها أيضًا، توقع الجميع زواجهم.. إلا أن ياسر ظهر في حياتها فاستحوذ عليها.. وإن بقيت علاقتها بكريم كما هي لم تتأثر.. وبالرغم من عملهم في قناتين متنافستين؛ إلا أن هذا لم يشكل أدنى عائق أمام استمرار صداقتهما.. استقلت سيارتها إلى منزلها وبصحبتها هواجسها.. هواجسها فقط.

***

وصلت ليلى إلى منزلها، وطاقتها متجاوزة الصفر بقليل، وعقلها مشغول برامي.. تشعر به يحيط بها، يحصي أنفاسها، لن تخدع نفسها أكثر من ذلك،

هي تحب إصراره عليها، ومحاولة استمالتها ثانية.. داعب أنوثتها بقوة.. طرق على مواطن ضعفها واحتياجاتها.. وعلى ذكر الاحتياج؛ استدعى ذهنها تلك الليلة التي ما فارقتها أبدًا.. تلك التي شعرت فيها وكأنها عروس من جديد.

نسيت كل شيء، حتى خالد.. اقشعرت على ذكراه.. أين ذهب.. لمَ توقف فجأة عن الظهور؟ أيعقل أن يكون ما حدث سابقًا دعابة سخيفة من أحدهم؟ توقفت الهدايا فجأة كما بدأت فجأة.. ربما بسبب انتقالها إلى هذا المنزل، يبدو أنه أحد معجبيها، ولكن تلك الموسيقى.. كيف دخل منزلها.. هل اختلقت الأمر؟ ربما الأمر فعلًا لا يعدو سوى هواجس، ولم يحدث إلا في مخيلتها.. استراحت للاحتمال الأخير.. هي هواجس بلا شك.

ترتاح لوصم نفسها بالجنون والهلوسة عوضًا عن احتمالية كونه حي.. خلعت حذاءها، وفكت شعرها، وتحررت من ثيابها، ووقفت أمام المرآة مبتسمة.. تحررت من كل شيء، من مرسل الهدايا، من الأرق والخوف والتوتر، امتلكت النجاح ثانية.. والحب، ومع ذكر الحب، احتل رامي مخيلتها.. هي تحبه بلا ريب، فإن لم يكن هذا هو الحب فما هو إذن؟ تشعر بروحها تتآلف معه، تنجذب إليه مهما تظاهرت بالتجاهل، تفتقده، تحتاجه، لا تشعر بالأمان إلا بين يديه، نامت كما هي وعلى وجهها ابتسامة كانت قد فارقتها منذ عامين.

***

قضى رامي أيامه التالية في البحث عن ذلك الموضوع الذي أثارته نور، حتى استطاع التأكد من عدم صحته، فلا شواذ في الأمر، وإن انتظر يومًا آخر ريثما ينتهي تمامًا من استقصائه.. ومع مكالمته مع أحد مصارده من قسم الشرطة؛ تيقن تمامًا من عدم صحة الأمر.. فاتصل بليلى مباشرةً.. بعد قرابة الربع ساعة اتفق كليهما على رفض الأمر تمامًا، وإخبار نور بالرفض التام.. تنحنح قليلًا وبصوتٍ خفيض:

– ليلى.. ينفع نتغدى سوا النهارده؟

بتردد كان طلبه، ربما مبعث تردده إعراضها عنه طوال الفترة المنقضية.. خشي من تبدل مشاعرها عنه، إلا أنها كانت كمن ينتظر الأمر، فأجابته بدلالٍ ظهر جليًا في صوتها الهادئ ونبرتها الناعمة التي عرفت طريقها إلى قلبه مباشرة:

– وماينفعش ليه؟ أنا هالبس واستناك.. عدي عليا بعد ساعتين.

أغلقت الهاتف بلا كلمة أخرى وهي مبتسمة.. اتصلت بنور.. تأخرت في الرد على غير عادتها حتى كادت لتغلق الهاتف، لولا أن انبعث صوتها ناعسًا:

– صباح الخير يا ليلى.

– صباح إيه يا نور.. الساعة ٣ العصر، فوقي وابقي كلميني.

تثاءبت نور.. وأكملت:

– لا انا فُقت.. خير؟

تحكي لها ليلى ما استقرت عليه مع رامي.. مع كل كلمة تخرج من فمها كانت مشاعر نور تتبدل.. حتى إذا ما انتهت ليلى.. حاولت التماسك قليلًا، وإن لم تفلح.. فقد ظهر الغضب جليًا في صوتها المرتفع..

– وإيه المانع برضو مش فاهمة يا ليلى؟ هي أول مرة؟

بيدي لا بيد عمرو.. هكذا قررت ليلى.. فتساءلت بصوت أكثر حدة:

– فيه تلميح مش لطيف في كلامك.. خدي بالك من أسلوبك.

– ولا اخد بالي ولا تاخدي بالك.. سلام يا ليلى.

وأغلقت الهاتف بعنف.. لو رأى أحدهم ليلى لحظتها، لظنَّها تمثالًا من الشمع، اذ تحجرت في مكانها ممسكة بهاتفها، حتى ليخيل للرائي أنها ما عادت تتنفس.. فالصدمة والحسرة في أقسى معانيها احتلا وجهها.. انتهى الأمر الآن.. لكل شيءٍ أجل.. حتى الصداقة.

***

ألقت نور الهاتف بجوارها في غضب.. وصرخت بقوة وكأنها تستعين بصراخها على مزاحمة ضجيج قلبها وعقلها.. ونهضت من مكانها، غيظها يزداد، "علي" أمامها وينظر لها بتشفٍ وشماتة..صرخت بقوة في وجهه:

– انت إيه اللي جابك هنا؟ اطلع بره يا علي.

خُيِّل لها أنه يبتسم.. فقذفته بكوب، فأراحها صوت تهشمه كثيرًا.. جلست أرضًا محدقةً في فراغ.. يفترض أن "علي" يحتله.. وجَّهت حديثها إليه:

- عاجبك كده يا علي؟ بقى ليلى تعمل فيا كده؟ تبيعني.. وعلشان خاطر واحد لسه عارفاه من أقل من سنة!!

بس عارف.. انا مش هاسكت، استنى وانت هتشوف، مش انا اللي يتعمل فيا كده.. هي نسيت انا مين!!

نهضت من مكانها مسرعة إلى هاتفها.. اتصلت بكريم.. وما أن أجاب بادرته:

- كريم.. انا عاوزة اشوفك دلوقتي.. ماليش دعوة.. سيب اللي في إيدك، عندي ليك خبر هيكسر الدنيا.

أغلقت الهاتف، وهي تعلم أن كريم سيأتي إليها الآن ولو حبوًا، غضب ممزوج بكراهية لليلى، يتملكها، ليلى تزيحها، تهمشها، هي من تفعل كل شيء، وليلى فقط تتأنق وتجلس أمام الشاشة، تذيع بعض الكلمات، وتحظى بالمجد والشهرة.. ونور بالفتات.. وياليت الأمر توقف عند هذا الحد.. بل أصبحت وكأنها تتعمد تهميشها.. هكذا ببساطه لن تذيع هذا الفيديو، لماذا؟ لأن أحدهم أخبرها أن الأمر غير مهم.. أو غير حقيقي.. ولَو يا ليلى.. أتِلك مَرَّتُكِ الأولى؟!

***

أما هي التي ظنت أنها امتلكت كل شيء ثانية.. تصفعها الدنيا بقوة لتخبرها أنه لا شيء كامل.. دومًا فرحتها منقوصة.. قانون الحياة الأبدي الذي تكرهه.. كلما أغدقت عليك الدنيا؛ فانتظر ماذا ستأخذ في المقابل، وها هي قد دفعت ثمنًا غاليًا.. صديقتها مقابل رامي.. ذلك الذي أمسك بيدها الآن فحاولت الهرب من هواجسها بالتطلع إليه.. يبدو وسيمًا بحق تلك الليلة.. ارتدي بنطلونًا خمريًا وقميصًا كحلي اللون بدا متناسقًا مع فستانها الزهري، أما عطره فبدا لها" **Vip men212**".. عطرها المفضل.

– عجبِك المكان؟

أومأت برأسها بالإيجاب، فقد انتقى مكانًا هادئًا في المعادي، جلسا في ركنٍ منزوٍ كعادتها دائمًا، طال الصمتُ كثيرًا حتى قطعه هو:

– مالك يا ليلى؟

وكأنها ما شردت إلا ليسألها.. فما أن انتهى من سؤاله حتى انطلقت تحكي بلا توقف.. لمَ نفعل هذا؟ لم لا نحكي ببساطة؟ لم ننتظر سؤال أحدهم؟ أهو التعطش للاهتمام؟ أم الكبرياء؟ أم ماذا؟

سعلت بقوة من فرط انفعالها.. فناولها كوبًا من الماء مشيرًا إليها أن تهدأ:

– اهدي شوية.. انتِ صح، متضايقة ليه؟

– انت مش فاهم حاجة.

- بيتهيألك.

نطقها بلهجة غامضة، أو ربما بدت لها هكذا، فلم تشأ سؤاله، حاول التسرية عنها بلا جدوى فقد استعمر الحزن قلبها.. فخسارتها فادحة.

- هي نور تستاهل الزعل ده كله؟

- طبعًا يا رامي، دي صاحبتي الوحيدة دلوقتي.

ابتسم في مرارة، فهو وحده من يعلم أن تلك التي تنعتها صديقتها، قد خانتها مسبقًا.. ولم يعلم أيضًا أنها في تلك اللحظة تبرم صفقة أخرى، ليس لهدف، سوى لنقمتها عليها.

***

تعمدت نور التلكؤ قليلًا، فهي تعلم أن كريم سينتظرها وإن تأخرت عنه يومان، لمحته يجلس بعيدًا، فأقبلت ناحيته بتؤدة، اختارت نفس المكان الذي التقت فيه رامي مؤخرًا، ولحظها التعس اختار كريم نفس الطاولة..

نهض لتحيتها، جلست قبالته صامتة للحظات، متطلعة إليه كأنها ما التقته منذ أيام.. واثقة أنها لو تركته لسنوات أخرى.. لعادت إليه وهو على حاله.. الشعر المجعد الذي لم يعرف المقص طريقه إليه منذ أعوام، وتلك النظارة الغريبة، والكلام الغير مفهوم الموشوم على يده..

- بتبصيلي كده ليه؟

- باخد صورة.

ابتسم لسخريتها وإن تطرق مباشرةً إلى ما أتى لأجله:

- ماقلتليش.. خير إيه الموضوع اللي عندك؟

اعتدلت في مكانها هي الأخرى.. واكتست ملامحها بالجدية:

- احكيلي شوية عن رامي يا كريم.

- والنبي بلاش ده.. انا مش طايقه، احنا متبهدلين بسببه.

أطلَّ التساؤل من عينيها فتابع:

- لما أشرف عرف انه مع ليلى خرب الدنيا.. عارفة الكحكة في إيد اليتيم عجبة، ما هو كان معانا وشغال يعني كويس.. مش واو بس اهو، لكن لما راح ليها بقى حلو!!

انطلق يخبرها بأمور تعلمها بالفعل إلا معلومة وحيدة لفتت نظرها:

- وكانت الأمور تمام.. وكنا بنتفق على الشغل الجديد، أمه ماتت، وبعدها اختفى شوية، ورجع شهر كده.. وهوب استقال بدون أسباب.

- ده حصل إمتى ده؟

- مش فاكر تحديدًا، بس يمكن بعد ما البرنامج بتاعك خلص بمفيش يعني يمكن أسبوع ولا حاجة.. حتى انا شكيت انه عارف بحوار البرنامج الجديد بتاعكوا وعاوز يبقى معاكوا، أصل محدش يسيب أشرف إلا لو هيروح لليلى.. متبصيش كده.. انا معملش كده، أشرف مش بس إعلامي، أشرف ده حوت كبير أوي.

إذن فالأمر لم يكن مصادفة، هو اختار ليلى قبل أن تختاره..

- بس انتِ بتسألي عنه ليه، وإيه الخبر اللي معاكي؟

شرحت له نور أنها تملك فيديو وتقرير كامل عن مركب شواذ، ولم تخبره أن الأمر غير حقيقي، نظر إليها مستريبًا بعض الشيء:

- غريبه يعني، ليلى بتحب الحاجات دي، جايالي ليه؟

- لا.. ليلى اعتزلت بعيد عنك.

نطقتها بسخرية مريرة، وتجاهلت وجهه الذي تحول إلى علامة استفهام.. فليلى ونور كالتوأم.. لا يفترقان، ما الأمر إذن؟ وكأنها قرأت ما يدور بخلده.. فأدارت دفة الأمر بعيدًا:

- إيه.. هتاخده ولا اروح مكان تاني؟ كتير يتمنوا تقرير زي ده!

غير أنه عاد ثانية لسؤاله:

- وانتِ مصلحتك إيه؟

- ولا حاجة.. مستخسرة بس تعبي يروح كده.

تطلع إليها ساخرًا، فهو يعلم أن هناك غرض خفي، وإن لم يدركه، إلا أنه لم يهتم، فالموضوع بأكمله مثير، وشيق، يعرف جيدًا أن تلك الحلقة بمجرد التنويه عنها ستجذب عشرات المعلنين وترفع نسب المشاهدة.. مجتمعنا وإن كان في ظاهره متدين، إلا أنه يعشق الفضائح، وهتك العورات.. ليهنأ الجميع بمأربه إذن، مجتمع سيجد ما يشبع رغباته.. وهو سيستفيد.. أما أشرف.. فتلك الحلقة جاءته على طبق من ذهب.. تماشيًا مع توجهه الجديد..

- كريم.. انت بتحسبها ولا إيه؟ يالَّا قلت إيه؟

اومأ برأسه إيجابًا دون رد.. فارتسمت ابتسامة شامتة على وجهها..

***

أوصل رامي ليلى إلى منزلها، وطوال الطريق لم يتحدث أحدهم.. فقط يمسك بيدها بين يديه.. وكأنه يخشى أن تفلت منه.. يحتاجها بلا شك.. وبأسفل المنزل أوقف محرك السيارة وهمَّ بالنزول بصحبتها لولا أن منعته هي بإشارة من يدها:

- انت نازل ليه؟ يالَّا روح بيتك..

مال عليها وهمس لها:

- وحشتيني أوي.. أوي.

ابتسمت في خجل.. هي أيضًا تشتاقه، ولكن لا يمكن.. فجمال بعض الأشياء في تفردها وعفويتها.. تكرارها قد يفقدها بهجتها إن كان في لحظة خاطئة، كتلك تمامًا.

حتى وإن كانت تريد المزيد؛ فلتتمهل قليلًا، ليس بتلك السهولة.. فإن كان ماحدث سابقًا حدث رغمًا عنهم، فالآن لا حجَّة لها.

فتحت الباب وهمَّت بالنزول، فأمسك بيدها وطبع قبلة حانية في باطنها:

- عارفة معنى البوسة دي إيه؟

هزَّت رأسها بالنفي فتابع:

- معناها إني ملكك.. ونفسي تبقي بتاعتي.

سحبتها برفق.. وغادرت مسرعة وقلبها يرقص بين ضلوعها، تابعها ببصره حتى غابت، انتظر قليلًا حتى أُضيئَت الأنوار.. فأدار محركه ثانيةً وغادر.. أما هي فدخلت مباشرةً إلى غرفتها متعجبة من حالها كيف يقشعر جسدها ثانية من لمسة يد.. تذيبها همسة.. تشتاق لقبلة.. لنظرة.. أتلك مشاعر أنثى ناضجة اختبرت الحب قبلًا؟

بكلمة منه أعادها ثانيةً لأيام شبابها الأولى.. ربما أبعد من هذا، أعاد لها شعور فتاة صغيرة لم تختبر قسوة الدنيا بعد.. كليلى في رواية لا تطفئ الشمس.. تلك التي تظن أنها حملت اسمها.

***

لم يختلف الحال معه كثيرًا.. فهو أيضًا مضطرب قليلًا، مشوش الفكر، لم يعد إلى منزله مباشرةً، بل قضى قرابة الساعتين خارجًا، وشعر بالحنين إلى أبيه، فذهب إليه وهو يتمنى أن يجده مستيقظًا..

فتح الباب فوجده جالسًا محدقًا في الفراغ، وصوت التليفزيون مرتفع، وكأنه يؤنس وحدته.. جزِع رامي لرؤيته على هذا الحال، غمره شعور بالتقصير والإهمال تجاه والده.. لم يحدثه والده، فقط نظرة عتاب صامتة، ولكن.. أيحتاج حديثًا؟ ففي الصمت أحيانًا عتابٌ وعقابٌ يفوق آلاف الكلمات.. هو يستحق تلك النظرة بلا شك، لا مبرر له.. مهما عزى الأمر إلى انشغاله.

نهضَ والده من مكانه متجنبًا الحديث معه، ومعه كل الحق.. فمنذ مدة طويلة وهو منقطع عنه.

عاقٌ أنت يا رامي، هذا ما جال بخاطره، فاقترب من والده وطبعَ قبلةً معتذرة على جبينه.. وتعمَّد المرح في حديثه:

- مش أنا هارجع أعيش معاك تاني يا حاج.. بس متضَّايقش بقى.

لم يعقب والده، وكأنه لم يعد يكترث، دخل إلى غرفته فسار رامي وراءه متابعًا:

- اه والله.. أسبوعين كده، وحاجه كمان، أنا بافكر اتجوز.

لم يجب أيضًا.. فقط جلس على سريره، وأشار لرامي بالمغادرة، فاقترب منه مقبّلًا جبينه:

- خلاص انا آسف، حقك عليا والله، بس الأيام اللي فاتت دي كانت صعبة بجد.. حقك عليا يا بابا.

صمتٌ هبط على كليهما، وإن خفت حدة العتاب قليلًا من عين والده، وتطلع إليه مليًا.. لم يسمع منه كلمة بابا منذ زمن، فرقَّ لها قلبه.. مهما حدث لا يستطيع أن يقسو عليه أكثر من ذلك، كيف له أن يقسو على قطعة من روحه.. فما ابنه إلا قطعة منه تلهو خارج جسده..

شعر رامي بتبدل الحال، أنفاس والده هدأت قليلًا، عرفت الابتسامة طريقها إلى وجهه وهو يتساءل:

- مين العروسة؟

- ليلى.

***

مضت أيام ليلى ورامي هادئة، اقترب كليهما من الآخر، فأصبح مكوثهما معًا أمرًا معتادًا، فسَّره البعض بسبب اختفاء نور الغير مفهوم من حياة ليلى وهي صديقتها المقربة، وتكهَّن بعضهم بقرب زواجهم، ولم يخيب رامي ظنهم أبدًا.. فذات يومٍ وفي طريق عودتهم، وبينما تعترض ليلى على تصرفات رامي _مشفقةً عليه لا أكثر_ فلا يعقل أن يأتي صباحًا ليقلّها للعمل، ويعيدها مساءً.. وبدون أن ينظر إليها، متصنعًا التركيز الشديد في الطريق.. همس لها:

- طيب ما نخليه مشوار واحد.
- مش فاهمة!!
- تتجوزيني؟

اختلف الأشخاص ولم تختلف الكلمة، فما أشبه الليلة بالبارحة، نفس الكلمة، بلا حرف آخر.

الأمس خالد، واليوم رامي.

- السكوت علامة الرضا ولا إيه؟
- امممم.. أقولك حاجة؟ برغم اني متوقعه حاجة شبه كده، بس لما اتقالتلي صريحة ومباشرة أوي كده خطفتني والله، وكمان..

صمتت فاستحثها هو على المتابعة.. فهمست:

- خالد..

- خالد ميت يا ليلى.. ممكن تنسي الفترة اللي فاتت؟

التقط يدها مقبلًا إياها.. فنفذ عطرها إلى قلبه تلك المرة، فابتسم مداعبًا إياها:

- وانسي كمان البارفان بتاعك ده.. هو اسمه إيه؟

ابتسمت ولم تجب، فتابع هو:

- والله بتكلم جد.

- كينزو آمور.

- خلاص تنسيه من هنا وجاي، دي مصر كلها بتعرفك منه، وانا باغير يا هانم.

لم تعقب.. فاسترسل هو في الحديث:

- أنا بحبك، ماعرفش حصل إمتى وازاي، ومخططتش اني احبك، بس غصب عني لقيت نفسي طول الوقت بافكر فيكي.. صورتك وصوتك أول وآخر حاجة في يومي، نفسي اشوفك طول الوقت، أول ما عرفتك متخيلتش انك كده، أنا اتغيرت بسببك،

من غير ما تسألي ولا تبصي باستغراب، انا دلوقتي غير من شهرين أو تلاته.. الحب بيغير.. انا يا ليلى محتاجلك جدًا.

وبدون رد.. فتحت الباب وهمَّت بالمغادرة، فاستوقفها مردفًا:

- والله العظيم بحبك.

تهدَّج صوته.. ربما للمرة الأولى التي تسمعه ينطقها بمثل تلك الطريقة.. اخترقها مباشرة إلى قلبها.. شعرت بصدقه.. تمنت لو ألقت نفسها بين ذراعيه الآن، غير أنها سحبت نفسها من بين يديه، ودخلت إلى منزلها وقلبها يخفق بعنف.

***

في سريرها منذ أن أوصلها رامي تحاول النوم بلا جدوى، كلامه ومشاعره مسَّت قلبها.. لمست الصدق في كلماته.. ورأت في عينه حبًّا لا يكذب.. ولا دليل أقوى من طلبه الزواج بها، فغيره بعد أن نال منها ما نال، كان ليلفظها.. غير أنه يخبرها أنه صدقًا يحبها.

رن هاتفها باتصالٍ معتاد من رامي.. وإن بدا صوته مختلفًا، يخفي شيئًا بلا شك.. فتساءلت في حيرة:

- رامي.. فيه إيه؟ بتلف وتدور ليه؟

- انتِ اتفرجتي على حلقة أشرف؟

- لا.. فيها إيه؟

- فيها الحلقة اللي انتِ رفضيتها!

لم تستوعب الأمر في البداية، غير أنه أكمل:

- حلقه نور يا ليلى.. حلقه المركب.

بهتت ليلى لما سمعته، أغلقت الهاتف من فورها، حتى أنها لا تذكر إن كانت قد ودعته أم لا، فتحت اليويتيوب من هاتفها وسقطت في مكانها وهي تتابع ما يذيعه أشرف.. ولسانها لا يتوقف عن تريد "لماذا؟" ظلت في مكانها لوقتٍ لا تعلم كم طال، حتى انتزعها جرس الباب من عالمها، فتحت وهي غارقة في شرودها، وما أن وجدت رامي أمامها حتى ارتمت بين أحضانه باكية:

- ليه يا رامي؟ ليه نور تعمل كده؟

***

نور الجالسه أرضًا تجتاحها مشاعر متباينة، تأخذها معها من أقصى اليمين لأقصى اليسار.. فتبكي تارة وتضحك أخرى، تدفن رأسها باكية بين يديها.. وتعتدل ثانيةً فتمسح دموعها لتتابع تقرير أشرف، ذلك الذي أعدَّته هي.. ترتسم على شفتيها ابتسامة شامتة في ليلى، تتخيل وجهها الآن والصدمة تكسوه، فتضحك.. تلك هي المرة الأولى التي تتمرد عليها، تصفعها علانيةً،

لأول مرة تشعر بالقوة، استطاعت أخيرًا التحرر، ولكن الندم تسلل إليها رغمًا عنها، حاولت إقناع نفسها بانتصارها، إلا أنه لا داعٍ ولا جدوى من إقناع نفسك بشيءٍ لا تؤمن أنت به.. هي تعلم أن الذنب ليس ذنب ليلى.. ماذنبها إن كانت تنفذ إلى الروح ببساطة.. أيُسأل المرء عن هذا؟!

نفضت الأمر عن مخيلتها مسترجعةً كلام أشرف وتشجعيه لها وإيمانه بموهبتها، وأنها في غضون سنوات، ستصير المخرجة الألمع، أخبرها أيضًا شيئًا أثار فضولها:

- يا نور انتِ كده صح.. المركب لما بتغرق كله بينط منها، وليلى خلاص، ظاهرة وانتهت.

لم تستوعب أبدًا ثقته اللامتناهية، وكيف يجزم بهذا وليلى مازالت مُتَوَّجَة.. لا يهم، هو أدري منها، هو المضطلع، هو السيد، هو المتحكم في إعلام البلد، ومعه الحق، فبدون ليلى كان سيصبح هو القطب الأوحد، ولا تنكر إن وجود ليلى أحدث بعض التوازن، وأعطى الأمل لشباب المذيعين والمخرجين في أن يحذوا حذوها.. ليلى ليست مجرد مذيعة، بل أصبحت نموذجًا، ابتسمت في سخرية محدثة نفسها:

- ولازم النموذج ده ينتهي بقى، نفسي اشوف وشك دلوقتي يا ليلى.

***

ومن بين دموعها بالكاد استطاع رامي أن يفهم كلام ليلى:

- ليه يارامي.. أنا عملت فيها إيه؟

مسح على شعرها بحنان، وحاول تهدئتها:

- ليلى يا حبيبتي.. الموضوع بسيط، خديه بناحية مهنية.
- أنا عمري ما حسبتها كده يا رامي، دي صاحبتي، كانت بتعيط في حضني، يوم ما خالد مات انا معيطتش غير في حضنها، يا رامي الضربه لما بتيجي من أقرب حد ليك، حتى لو هينة، بتكون في مقتل.

ارتفع صوتٌ بداخله يخبره بحتمية إخبارها بالأمر علَّه يهدئ من ذهولها وصدمتها.. تردد قليلًا حتى حسم أمره:

- ليلى.. يمكن نور مش زي ما انتِ فاكراها..
- عندك حق.. أنا فعلًا كنت مخدوعة فيها.
- لا يا ليلى، مقصدش كده، أقصد..

تردد كثيرًا في إخبارها، استحثته هي فتابع:

- بصي يا ليلى، مش عارف ينفع أقولك ولَّا لا، بس نور.. كانت على علاقه بخالد.

حدقت في الفراغ، ثم التفتت إليه:

- متهزرش.. خالد مين.. إيه الكلام ده يا رامي؟

أطرق أرضًا ولم يجب.. فهزته هي بيدها:

- لا بص لي هنا.. خالد جوزي! خالد!! انت عرفت منين؟!

تطلع إليها صامتًا.. هالَهُ شحوب وجهها وبياض شفتيها وأنفاسها المتقطعة.. أمسك بيدها فوجدها تنافس الثلج برودة:

- ليلى.. حبيبتي.. اسمعيني.. أنا ماكُنتش عاوز اقولك، بس دلوقتي لازم تعرفي حقيقتها..

انطلق يخبرها بما درار بينه وبينها.. لم يكن يعلم بتفاصيل ما دار بين خالد ونور.. فأخبرها فقط بكلماتها وتلك السلسلة.. صمتت ليلى قليلًا وزوت ما بين عينيها وكأنها تسترجع شيئًا:

- علشان كده يا رامي أخدتها ومشيتوا لما لاحظتها.. أنا مش مجنونة، مش بهلوس، يبقي خالد عايش بجد زي ما باقول وعاوز يجنني.. بس نور..

شهقت بقوة، فناولها كوب ماء، ارتشفت منه رشفة ووضعته جانبًا وارتجفت شفتها السفلى وانسابت دمعة ساخنة من عينها منزلقة على خدها.. حاولت الحديث فلم تستطع.. شعرت بغصة تمزق حلقها، وإن تابعت بصوت مختنق:

- نور.. أنا وقفت جنبها وقت ما كل الناس بعدت عنها، حتى لما أهلها رفضوها، فتحت لها بيتي، اعتبرتها صاحبتي، تعمل فيا انا كده.. طيب ليه؟!

- الضعف يا ليلى، كل إنسان بيعدي عليه لحظات ضعف، يمكن هي مكانتش متزنة، يمكن نفسيتها مش مظبوطة من الأول.. يمكن..

صمت ولم يكمل، فقط احتضنها مربتًا عليها حتى استكانت بين يديه، فاعتدلت ثانية ومسحت دموعها بيديها، وتطلعت إليه بأعين لمح فيهما القوة لا الانكسار.. التحدي لا الهزيمة، وكأن أخرى حلت في جسدها، فبدا صوتها قويًا:

- عليا وعلى أعدائي، الفيديو ده متفبرك، مش صح، انا هاطلع اقول كده، واللي يحصل يحصل.

- يا ليلى استني بس، أشرف..

قاطعته بصرامة لم تعهدها هي في نفسها من قبل:

- يولع أشرف، الولاد دي مظلومة، وهو دمر حياتهم ووصمهم بعار عمره ما هيسيبهم.

تطلع إليها مبهورًا، وكأنه يراها للمرة الأولى، يا الله.. أتِلك المرأة هي ليلى؟ وتابعت هي بنفس الصرامة:

- وسواء خالد عايش أو مش عايش، ماعادش يفرق معايا، مش هو بيحبها وعاجباه؟ يروحلها، راجع يعاتبني على إيه، إني حبيت؟ بس على الأقل انا حبيت بعد ما هو مات، عمري ما خونته.. وهو خانّي مع صاحبتي..

نظرت اليه وأمسكت هي بيده، ربما للمره الاولي منذ ان التقت به:

- رامي، انت الوحيد اللي جنبي دلوقتي.. أرجوك خليك جنبي.. أرجوك بلاش تسيبني.. انا مبقتش أثق في حد غيرك.

لم تعلم أنها غرست في صدره سكينًا بتلك الكلمة، ولن تعلم إلا بمُضيّ الأيام!

***

بمفردها كانت تنهي إعداد حلقتها القادمة....اصرت هي على هذا برغم إدراكها مغبَّة الأمر، ربما تتعرض للإيقاف، للتحقيق، ولا تأبه بالأمر.. حتى لو اعتزلت بعد تلك الحلقة، يكفيها أنها أنقذت هؤلاء الشباب من العار الذي

لا ينمحي.. أمالت رأسها قليلًا، ونظرت إلى أعلى.. أطلقت تنهيدة حارة متعجبة من تبدل حالها.. كيف تحولت من النقيض للنقيض؟ كيف امتلكت الشجاعة والجرأة الكافيتين لاستمرارها فيما هي مقدمة عليه رغم عواقبه!

يزداد امتنانها لرامي.. هو بالنسبة لها عصا موسى، هو من أزال التراب عن روحها، أعاد إليها شعورها بإنسانيتها التي ظنت أنها لوثتها مسبقًا، كشف لها حقيقة نور وخالد.. وعلي ذكرهم، أمسكت بدفتر ذكرياتها، مزقته لقطعٍ صغيرة، شاهدته وهو يحترق أمامها.. ومع كل ورقة تحترق، كانت تشعر براحة.

لم تعد تريد أن تتذكر خالد بعد الآن، خيانته لها محت كل أثر لحبٍ باقٍ في قلبها.. عجيب أمر تلك الأنثى، كيف لها أن تجمع بين الكره والعشق في آنٍ واحد، كيف يحمل قلبها بغضا وكراهية لأحدهم، وحبًا لآخر،كيف أن حبَّها يتبدل بين طرفة عينٍ وانتباهها، ولكن كرامة الأنثى هي أغلى ما تملك.. وليلى ليست أي أنثى، هي امرأة استثنائية، أنثى غير عادية، لذا فخيانته أيضًا تستوجب عقابًا غير عادي، ستمحيه من حياتها، ستلغي كل أثر لوجوده، وكأنه ما وُجِد من الأساس.. فإن كان حيًّا، فليهنأ معها وإن كان ميتًا.. فليحترق في الجحيم كما أحرق قلبها.

***

أما أشرف فلاقت حلقتة الترحيب والمباركة.. فاستبيانات الرأي والتعليقات على السوشيال ميديا تفي بالغرض تمامًا، هجوم على تلك الفئة من المجتمع.. جرائد موالية له تنشر الخبر باستمرار.. مزهوًا بنفسه وشعور النصر يغمره، انتصر عليها، انتزع منها ما كان ومن كانت معها، إلا أنه يؤمن بالمثل القائل لا تأمن للأفعى حتى بعد قطع رأسها، فتوتَّر قليلًا.. أشعل سيجاره ونفثَ دخانها في الهواء، يعلم أن ردة فعلها لن تكون بسيطة فهي من النوع الذي لا يستسلم بسهولة، ينتظر حلقتها، ربع ساعة فقط، قطع أفكاره صوت إنچي المتأفف:

–mais arrete

نظر تجاهها بضيق ، وتجاهلها تمامًا، فتابعت بعصبيتها المعهودة:

– مش شايف الدخان والقرف ده؟

Tu es deveut insuportaaaaable.

نفث دخانه في وجهها، وتابع:

– مش طايقاني علشان سيجارة؟ امشي يا إنچي، امشي دلوقتي الله يباركلك.. أنا مش فاضي للهبل ده.

– انت مش هتبطل كلامك ولا طريقتك دي..

Tu es bizarre

دومًا تسخر منه ومن طريقة نطقه للكلمات، تعامله دومًا كما لو أنها صاحبة فضل عليه، أنها تواضعت عندما تزوجته، منحته شرف الاقتران بسليلة الباشاوات.. أوف لا يطيقها، كيف تزوجها، كيف تحمل كل تلك السنوات بجوارها، لأول مرة ربما منذ سنوات تلك التي يمعن النظر فيها، ما كل تلك الأصباغ التي تملأ وجهها، وتلك الملابس التي لا تناسب فتاة في الثلاثين أصلًا.. كيف لها أن ترتديها، والشعر الأصفر المصبوغ.. أووووف، يكرهها، يكره تصنعها، وحدَّتها، يكره غرورها وعجرفتها.. لم يشعر يومًا بالسكينة والمودة والحب، ذلك الذي سمع عنه الكثير، يشعر إذا ما دخل بيته أنه في سجن، وأن زوجته هي السجَّان، لذا لا يستبعد أن يكون سفر ولده بلا عودة بسبب حياة الزيف تلك التي يحياها هنا.. هو يختنق بالتأكيد، كل شيء بميعاد، بميقات، كل شيء محسوب بدقة، حتى يخيل له أنها تحصي عدد أنفاسها ولا تتجاوزها.. راقبها ببصره حتى اختفت، والتفت ثانية إلى الشاشة، في انتظار ظهور ليلى.

***

بمجرد دخول ليلى إلى الاستديو.. سرت همهمات بين الجميع.. ارتسمت تساؤلاتهم على وجوههم، علامات تعجب عن نور ومنها، أحرقتها نظراتهم..

تذكرها بخيانة مزدوجة، بحمقها وسذاجتها، ربما غرورها أيضًا، ولكن.. أهي المذنبة؟

كثيرًا ما سمعت عن خيانة الصديقات.. إلا أنها لم تتخيل يومًا أن تكن إحدى بطلات تلك القصص

هكذا الأمر إذن، كل منا يظن أنه في منأى عن الخيانة والوجع والجرح.. يسمع حكايات الآخرين ويتعاطف معهم ويتعجب من الأمر، حتى يتفاجأ بأنه هو نفسه أصبح أحد الأبطال.

أقبل رامي تجاهها.. تبادل معها حديثًا خافتًا، أمسك بيدها مهدئًا، فكثرت الغمزات بين الموجودين، وإن لم يأبه أحدهم بالأمر، أنهت كعادتها استعداداتها سريعًا، واعتلت مكانها المعتاد، أحضر لها رامي كوب النعناع وابتعد..

صوت يعلو.. ثري، تو، وان.. هوا

وعلى غير العادة، لم تبتسم، وكأن وجهها انطبع عليه الحزن، فقد بدأت حلقتها غضبى، كان غضبها حقيقيًا، لم تفتعل أي شيء، كانت صادقة في هجومها على أشرف، شرحت الأمر بأكمله كما حدث، بدءًا من استلامها للفيديو عن طريق نور، حتى تقصيها الأمر وتأكدها من زيفه، ورفضها إذاعته، وصولًا إلى مفاجأتها كالجميع عندما وجدته معروضًا.. تسمَّر جميع من

في الاستوديو غير مصدقين.. حتى أن آدم أكمل الحلقه كما هي بلا فواصل..

الجميع يتبادل نظرات متسائلة متعجبة من رد فعلها، عدا رامي.. يتطلع إليها بنظرة جمعت بين الانبهار والحب والإشفاق!!

ليلى تطيح في الجميع بلا مواربة، تهاجم أشرف علانيةً، بأنه ما التزم بأخلاق المهنة، وأن نور المخرجة السابقة هي الأخرى مسئولة عن الأمر برمته.. التقطت نفسًا عميقًا وزفرته في بطء.. لعلها تهدئ من توترها قليلًا وتابعت:

– ياتري مصير الأولاد دي إيه؟ ليه نوصمهم بعار مش هيتنسي؟ كل ده علشان نعمل سبق صحفي!!

نبقى زي مصاصين الدماء، مش مهم مين هيموت، المهم احنا نكبر، نزود نسب المشاهدة والإعلانات.. يا أشرف بيه اللي حضرتك عملته ده ميصحش.. خطأ ميقعش فيه مبتدىء مش حد في مركز سيادتك.

طال حديثها بلا انقطاع، وامتلأت المقاهي عن آخرها بالمشاهدين، وكأن ماتش الأهلي والزمالك لم ينتهِ بعد، ولكن فرحتهم بهجوم ليلى على أشرف فاق كثيرًا فرحتهم بفوز الأهلي على الزمالك في هذا اليوم، الذي بدا وكأنه مباركٌ بأكمله، فالحدث الأخير هم معتادون عليه، أما أن يشاهدو صراع الحيتان أمامهم، لهو أمر غير اعتيادي بالمرة، فهم كالسمك الصغير الذي

يفرح ويمرح إذا ما بدأ صراع العمالقة، وبينما ليلى تكمل حلقتها، كان أحد الجالسين على أحد مقاهي وسط البلد يتحدث مع المحيطين:

- الست دي بميت راجل، بس ربنا يستر عليها.

تطلع إليه الجميع مستفهمين، فتابع:

- أشرف ده بتاع الحكومة، وهي بتخبط فيه أوي، لما نشوف هيدبروا لها إيه!!

***

وفي منزلها.. كانت تتحرك بجنون، تقذف في عنف كل ما تطاله يدها، ليلى هاجمتها بلا مواربة.. "نور.. تلك التي كانت صديقتي"، صرخت كثيرًا حتى ما عاد الصراخ يجدي، والتقطتت هاتفها وضغطت رقم أشرف، لحظات وسمعت صوته ثائرًا هو الآخر:

- من غير كلام كتير، شُفت الحلقة.. وحياة أمي لاقعدها في بيتها، لاخليها تتكسف تمشي في الشارع بعد كده.

وأغلق الهاتف دون أن يضيف كلمة أخرى، أما نور.. فقد أدركت الآن.. والآن فقط.. أنها خسرت ليلى إلى الأبد.

وكأنها كانت في غفوة واستيقظت الآن على تلك الحقيقة.. فانهمرت دموعها غزيرة.

تجمع العاملون حول ليلى، مبهورين بتلك الحلقة، تلك التي رأوا بسببها جانبًا آخرًا ما رآه أحد من قبل، جانبها الإنساني.. كيف أنها كانت تدافع بحدة وصدق شديد عن هؤلاء الفتية.. عبارات تتناثر حولها "إيه العظمة دي"، "أحلى حلقة والله"، "ربنا معاكِ دايمًا".. بحثت بعينها بين الموجودين، حتى لمحته بعيدًا، كان يعبث بهاتفه، فانسحبت من الجميع إليه مباشرة.. لم ينتبه كثيرًا لمقدمها..

- سرحان في إيه؟

انتفض جسده في عنف، متطلعًا إليها:

- لا خالص، باشوف بس السوشيال ميديا، انتِ ركبتِ الترينـد باكتساح، أشرف كده بخ.

تطلعت إليه في تساؤل:

- شكلك مش فرحان!

هز رأسه نافيًا الأمر..

- ليلى، مش دي الفكرة.. انا خايف عليكِ، أشرف ده تِعبان، وانتِ حالًا بهدلتيه.. انا بجد خايف.

توترت ليلى قليلًا.. مسحت عرقًا وهميًا سال على جبهتها.. تطلعت إلى رامي بأعين انطفأ بريقها:

- انت قاصد تطمني ولا تخوفني؟ رامي، لو مش هتقول كلمة حلوة اسكت من فضلك.

- يا ليلى انا بس..

قاطعته بنبرة من ينهي النقاش:

- خلاص اللي حصل حصل، وأعلى ما خيله يركبه.

***

- أشرف.. هو اللي ليلى قالته ده حقيقي؟

انتفض في عنف.. فبينما هو مندمج في التخطيط لانتقامه، ينتزعه صوتها المزعج قصرًا من خيالاته.. فاستدار بالكرسي ليواجهها.. متطلعًا إليها في غيظ، أغمض عينيه قليلًا وكأنه يمنع نفسه من الانفجار.. تخيل أنه يقذفها بمنفضة السجائر، شاهد رأسها يتهشم والدماء تغمره، فابتسم في راحة.. فاستفتزها ابتسامته وارتفع صوتها في حدة مقتربة منه:

- بتضحك على الخيبة..؟ Veux tu me repondre

زفر في ضيق، وود لو استحال خياله لواقع..

- وافرضي يا إنچي.. من امتى بتهتمي بشغلي؟

أشاحت بيدها بعصبية.. ورفعت إصبعها أمام وجهه في نبره تهديد واضحة:

– شغلك ميلزمنيش.. بس لما يمس اسمي لازم اهتم، شكلي إيه دلوقتي قصاد صاحباتي وعيلتي..

Tu es fou ou quoi?

بذل جهدًا خرافيًا لمنع نفسه من قذفها بالمنفضة.. غير أنها أخذت تلمع أمامه، مغرية إياه بالتقاطها.. أشاح بوجهه بعيدًا مقاومًا تلك الرغبة المسيطرة عليه، سحب نفسًا عميقًا كأنه يسحب معه هواء الغرفة جميعها.. فتساءلت ثانية.. فانفجر بها صارخًا:

– امشي دلوقتي.. خلي يومك يعدي.

تطلعت إليه بذهول، تلك هي المرة الأوى التي تراه هكذا، فحاولت تهدئته:

– طيب لو عاوزني اتدخل، انا ممكن اكلم..

قاطعها بعصبية أكثر:

– للمرة الأخيرة سيبيني لوحدي، مشاكلي انا هاحلها.

رمقته بنظرة غاضبة وأردفت وهي تغادر بصوت تعمدت أن يسمعه:

– ياريت.. بدل ما اعمل تصرفات مش هتحبها.

عضَّ على شفتيه حتى ادماها.. تابعها ببصره حتى ابتعدت عنه، يكرهها ويكره ليلى ويكره الجميع، ما أحوجه لهاجر الآن.. تلك التي كانت بهجة حياته.. وضع رأسه بين كلتا يديه.. وكأنه يمنع انفجارًا وشيكًا في خلايا مخه..

لحظات حتى استعاد رباطة جأشه ثانيةً.. التقط هاتفه، وبحث عن رقم نور.. هو بحاجة إليها الآن أكثر من أي وقت مضى.. قضت بجوار الحية مدة لا بأس بها.. اتصل بها وما أن سمع صوتها حتى بادرها بلهجة آمرة:

– نور، عدي عليا بكره الصبح ضروري.

وأغلق الهاتف دون حتى أن يسمع ردها.

***

وكالهدوء الذي يسبق العاصفة، مضت أيام ليلى، هادئة هانئة، لا يعكر صفوها شيء، علاقتها مع رامي تتطور، التقت بوالده.. أحبته.. أحبت بساطتة ووضوحه.. ذكَّرها بوالدها الراحل، خاصة عندما أصر أن يلاعبها الدومينو، ويعلو صوته مهللًا إذا ما كان الفوز من حظه، ليت الآباء لا يرحلون..كانت تشعر معه بدفء افتقدته منذ زمن..

ومن رحم الألم يولد الأمل، هكذا حياتها الآن، فما حدث طوال الأشهر السابقة بدايةً من فقدان خالد، مرورًا بعودتها للعمل، وصولًا لاكتشافها الحقيقه كاملة؛ لهو أمر في ظاهره العذاب، وإن كان في باطنه الرحمة.. فمع كل ما حدث، عاد إليها الأمل والحب.. السكن والونس.. عادوا جميعًا مع رامي.. إلا أنه أيضًا أصبح غامضًا بعض الشيء.. تحمل عيناه دومًا نظرة خُيِّل

لها أنها نظرة اعتذار.. لم تسأل، فهي لا تريد لهاجسٍ ما أن يعكر صفو حياتها.

حتى جاء يومٌ ثارت فيه العاصفة بلا موعد.. كانت على وشك النوم عندما رن هاتفها بالنغمة المميزة للرسائل.. التقطته دون اهتمام.. فتحتها.. فاعتدلت في مكانها في فزع.. ومع كل كلمة كانت دقات قلبها تتسارع:

– استني الفيديو اللي هيتبعت لِك دلوقتي على الفيس بوك يا.. ليلو.

وكأن قدرها يعاندها.. تأتي تلك الرسالة في الوقت الذي ظنت أن الأمر كان مزحة وانتهى.. وعلى هاتفها الشخصي، ذلك الذي حظيت به مؤخرًا، كيف يحدث هذا، بل أي هراءٍ هو؟

اتصلت برامي مسرعة، طالبة منه الحضور إليها، جلست في انتظاره يقتلها الترقب والقلق، وبعد قرابة الساعة كان يجلس برفقتها وثالثهما الانتظار، مر الوقت بطيئًا.. إلى أن استقبلت رسالة من حساب يحمل اسم "زووم إن" ضغطت زر القبول.. فيديو لا تتجاوز مدته الدقيقة مرفق به رسالة "أتمنى المفاجأة تعجبك يا ليلو"

ضغطت زر التشغيل.. وتراجعت مصعوقة في مكانها حتى كادت تسقط.. أسندها رامي وهو محدق في الفيديو بغير تصديق، وليلى لا تتوقف عن ترديد كلمة "مستحيل"!!

***

"مستحيل".. ظلت ليلى ترددها في ذهول، تشعر بروحها تزهق، فما أمامها ينسف حياتها كاملة.. ساد صمت مقيت بينهما، طأطأت رأسها خجلًا.. لم تقوَ على النظر إليه.. وكيف تجرؤ؟ اندفع سيل من الأسئلة بداخلها كالبركان.. يحرقها، بأي عين سيراها؟ هي من هاجمت أشرف، فعلت المثل من قبل!!

تطلعت إليه بنظرة رجاء، ترجوه أن يتحدث، يسألها، حتى لو يصفعها.. فصمته يحرقها، ذهوله يقتلها، نكست رأسها مخاطبة إياه:

- مصدوم فيا يا رامي.. حقك.. بس انا مش وحشة، أنا مأذتش حد..

صمتت قليلًا ثم تابعت:

- الفيديو ده مش عارفه صورته ليه أساسًا واحتفظت بيه ليه؟ يمكن لحظات ربنا بيعمينا عن حاجات معينة مبنفكرش احنا بنعملها ليه،

علشان بعد كده يفوقنا بيها.. بس والله أنا فُقت من غير ما الفيديو يظهر للنور، أنا مش وحشة يا رامي..

دخلت في وصلة بكاء هيستيري، احتضنها محاولًا تهدئتها، فتابعت هي الشرح:

- يومها أنا فاكرة كويس اللي حصل، جمعنا مادة حلوة، بس البنات رفضوا يطلعوا هوا.. بالرغم اننا قولنا لهم ان وشهم مش هيظهر.. بس خافوا.

فأنا فكرت اجيب بنات كومبارس.. يمثلو انهم بنات ليل.. فهمتهم الكلام وحفظوه.. وعملنا الحلقة.. وخبيت وشهم.. والحلقة عدت واتنست.. عارف لو اتعرض الاتفاق معاهم ده.. طيب عارف لو وشهم ظهر هيحصل إيه؟

أومأ براسه بلا رد.. فقط محتضنها علَّها تهدأ قليلًا.. غير أنها تابعت:

- أنا معرفش ليه احتفظت بالبروفات دي.. ولا بالفيديو أصلًا.. خالد بيعمل فيا كده ليه؟ أنا عملتله إيه يا رامي؟

تحول جسدها تدريجيًا إلى لوحٍ من الثلج.. خشي عليها رامي:

- ليلى.. أرجوكِ تهدي، احنا محتاجين نتكلم شوية.
- عاوز تبعد عني.. صح؟

نظر إليها بعتاب، واحتضنها:

- ده انا ما صدقت لقيتك.. أنا بحبك، اعرفي دي كويس.. بس لازم نتكلم، مبقاش ينفع أكتر من كده.. أنا حرفيًا بموت يا ليلى ومش مستحمل!

ابتعدت عنه وتطلعت إليه بتساؤل:

- ده وقت ألغاز يا رامي؟

- استني طيب هاعملك حاجة تشربيها.. وتهدي وتسمعيني للآخر.

كانت أضعف من أن تتحدث أو تناقش، أراحها هو على الكنبة، وذهب باتجاه المطبخ، بعد دقائق عشر، عاد إليها بكوب يحوي بداخله شرابٌ أحمر ناولها إياه، التقطته منه دون حتى أن تنظر إليه، وما أن رشفت منه حتى سقط من بين يديها، مرددة فقط:

- انت..

***

- أنا باستسلم وبقولك اني مش قادر أبعد عنك.. أنا بحبك.

هكذا صرَّح رامي بحبه لهبة قبل ثلاثة أعوام أو يزيد.. تلك التي التقاها مصادفة في الجريدة التي تعمل بها صحفية تحت التمرين.. وهو في زيارة صديق له، كان يجلس برفقته عندما لمحها تمرق في خفة فراشة بين المكاتب،

شعرها يتطاير خلفها، وتزيحه هي في حركة تقطر رقة وعذوبة، نظرت إليه، فشعر وكأنه سقط في بئر سحيقة بلا قرار، فذهب إليها مباشرة واستوقفها وبلا تردد باغتها:

- صحيح احنا النهارده أول إبريل، بس اللي هاقوله ده مش كدبة.. أنا معجب بيكي.. أو بعنيكي تحديدًا..

توردت وجنتاها، وإن أشاحت بوجهها بعيدًا، وأجابت في حدة:

- شكرًا.

وقف مذهولًا غير مدرك الأمر.. شكرًا!! هكذا إذن، حاولت المغادرة فمنعها:

- استني بس.. الكلام ماخلصش.. مستعجلة ليه؟

تطلعت إليه في استنكار.. ابتعدت عنه.. فلحق بها..

- طيب اسمك إيه؟ والله ما بعاكس.. يعني هعاكسك في الجرنال!

- هبة.

وكلمة تلي الأخرى.. حتى ظفر برقم هاتفها.. همت بالانصراف.. فمال عليها:

- هاكون مبسوط أوي لو قبلتي عزومتي على قهوة، أو أي حاجة تحبيها.

أشاحت بوجهها بعيدًا هربًا من أعين اخترقتها بلا هوادة، وبجرأته التي خطفتها تابع:

- الزمالك حلو.. هستناكي الساعه ٦ .. هابعتلك اللوكيشن، سلام.

غادر هو في هدوء، وإن خلف وراءه قلبًا كاد ضجيجه أن يصم الأذان، ومن التردد للترقب كانت هبة.. استطاع هو بكلماته البسيطة اقتحام حصون قلبها المغلقة، نفذ إليها بسهولة،كالعطر الدافئ في ليل شتوي قارص، تعددت اللقاءات، وفي كل مرة تشعر به أقرب، يخترقها يستحوذ عليها، تلك التي لا تؤمن بالحب، استسلمت له ببساطة.. وجد كلاهما ما يحتاجه في الآخر.. انصهرا سويًا..

ظهرت له هبة في أوج الضعف والاحتياج، كان هشًّا مدمرًا من الداخل، فلم يعد يستطيع التماسك ولا يملك رفاهية الانهيار.. فالتجأ اليها واحتمى بها، ولكن...منذ متى والقدر رحيمٌ بنا، منذ متى وهو يغدق علينا بعطاياه، ففي اللحظة التي منحت الدنيا رامي سعادته بيمينها؛ كانت تنتزع منه قسرًا

والدته بيسارها، كل محاولات العلاج بلا طائل.. فلم يجدي سفرها خارجًا بصحبته عدة مرات، فالمرض استشرى في جسدها النحيل حتى أتى عليه..
يتمزق رامي مع كل آه يسمعها من أمه.. يحتضنها.. يحاول التخفيف عنها.. يداعبها ويمازحها.. مع كل خصلة شعر تسقط كان جزءٌ من روحه ينتقص.
بينما هو محتضنها.. محاولًا التخفيف عنها.. هدأت آهاتها مرة واحدة، استكانت فجأة.. لفظت أنفاسها الأخيرة بين يديه..
لم يفهم ما الأمر.. هزها برفق مناديًا إياها:

– ماما.. انتِ نمتي؟

ولكن طال صمتها وامتد.. برد جسدها وتيبس.. هنا.. وهنا فقط أدرك الحقيقة التي ظل يرفضها لساعات.. فارقته أمه.. فارقته وهو عاجز عن التخفيف عنها.. وأي شيء أقسى على الرجل من العجز، وكأنه في وادٍ غير الوادي.. فلم يكن مدركًا أو مستوعبًا للأمر.. ما كل هذا الهراء؟ لم تبكي خالته؟ لم تحتضنه أخته وتبكي بين أحضانه؟ لا يُعقل.. أمه لم تمت!!
ابتعد عن الجميع وآثر البقاء وحيدًا ريثما يحاول لملمة شتات نفسه.. يقضي ليله ونهاره باكيًا، كان طفلًا صغيرًا في جسد رجل.. يشتاق أمه التي غادرت بلا استئذان، بالرغم من أنه توقع هذا، إلا أنه لم يسامح الموت أبدًا، الموت

الذي انتزعها منه.. يكرهه.. ذلك الضيف اللئيم الذي يأتي بلا ميعاد ويسلبنا أغلى الأحباب.

مرت أيام وهو على حالته تلك.. فقد الكثير من وزنه، ونمت لحيته..

وبصعوبة استطاعت هبة الوصول إليه، فتح لها الباب، تسمر كليهما على الباب للحظات، هي غير مصدقة ما ترى.. وهو الآخر غير مدرك وجودها.. فارتمي بين أحضانها بلا حديث، احتضنته مربتة عليه، لعله يهدأ، دخلت بصحبته وأجلسته على أقرب كرسي، وبجواره كانت هي تتطلع إليه.. تنظر إلى الأعين المنكسرة التي فقدت بريقها ورغبتها في الحياة، إلي ملابسه المتسخة، وشعره الأشعث.. لأول مرة تراه على تلك الحالة.. شعرت بالشفقة عليه، فبكت معه وعليه، احتضنته كوليدها، ربتت على كتفه، مسحت على شعره علَّه يهدأ، واستكان هو بين يديها، استكان كطفلٍ كبير، بعد لحظات تطلع إليها مليًا، و..

وذهبت النشوة وبقيت الحسرة، لا يدري أحدهم كيف تجاوزا الحدود سويًا هكذا، كيف أسلمت له نفسها ببساطة، فلم ينتبه أحدهما لما انجرفا إليه.. ارتفع بكاؤها بجواره، وهو يحاول تهدئتها، وكأنه مسها من حزنه نصيب.. أخذ هو يهدئ من روعها.. فقط تنقضي أيام الحداد، وسيتزوجها.. يحبها ولن يتركها أبدًا، لتثق به قليلًا، هدأت هي الأخرى بين يديه، احتضن كليهما

الآخر، وكأنهما يستمدان القوة بالتحامهما سويًا، والدمع ينساب من مقلتيهما..

وكالثمره التي قطفت قبل أوانها فذبلت سريعًا؛ كانت هبة، تركَ السهر والبكاء أثاره عليها، لم تفهم والدتها ما حل بها، حاولت معها كثيرًا، بلا جدوى، حتى جاء يوم، استقبلها رامي على أعتاب منزله وبكاؤها يسبقها.. ارتمت بين أحضانه..

- رامي.. أنا حامل!

كاد أن يسقط مغشيًا عليه، لم يلتقيها إلا مرة واحدة، ولكنها تكفي، أخذت تبكي وتصرخ غير مدركة ماذا تفعل، لم يجد أي منهما بدًّا من التخلص من الأمر.. حاول هو تلك المرة تهدئة روعها.. غير أن بداخله شعور يخبره بحتمية التخلص من الأمر.. اقترب منها.. مسح على شعرها قليلًا، فكفت عن الارتجاف، بصوتٍ خفيض بادرها:

- انا بحبك وانتِ عارفة.. ولَّا عندك شك؟

لم تجب.. فكرر سؤاله، فأجابت من بين دموعها:

- عارفة.. وانت عارف انت إيه عندي.

- احنا هنتجوز يا هبة، بس..

صمتَ هو قليلًا.. فاستحثته أن يكمل..

– بس مش دلوقتي.. أنا امي مكملتش شهر ونص!

تطلعت إليه غير مصدقة وغير مستوعبة الأمر وبدأت بالصراخ:

– يعني إيه مش دلوقتي.. انت فاهم بتقول إيه؟

وضعت رأسها بين يدها وصوت نحيبها يمزق نياط قلبه.. اقترب منها محتضنًا إياها:

– أرجوكِ تهدي.. افهميني بس، أنا بحبك، ورحمة أمي بحبك وهتجوزك.. بس أمي لسه ميتة من شهر ونص.. نخلص من المصيبة دي ونعدي شهر ولا شهرين كمان.. وهتلاقيني في بيتك.. انا بحبك يا هبة.

رفع رأسها إليه، وتطلع إلى عينها مباشرة، مسح دموعها بيده، وطبع قبله على مفرق شعرها، أومأت دون رد.. فاحتضنها محاولًا بث الطمأنينة لها.. وإن تولد بداخله خوفٌ لا يدري كنهه أبدًا!

قضى رامي أيامه التالية في البحث عن عيادة للإجهاض.. استطاع أخيرًا الوصول إلى أحدهم.. ذهب بمفرده في البداية.. حجز ميعاد.. التقى الطبيب.. بعدما نقد الممرضة ورقة من فئة المائتي جنيه مع وعد بأضعافهم بعد الانتهاء.. اتفق على الميعاد وطلب الطبيب منه تحاليل بسيطة.. مع بعض

الأسئلة.. تم الاتفاق على آخر الأسبوع كميعاد للعملية.. أخبره ببعض الإجراءات الوقائية المتبعة..

وبدورها أخبرت هبة والدتها بسفرها في مهمة تبع الجريدة.. وفي اليوم المحدد وصلت هبة بصحبة رامي إلى مكان العيادة.. شعرت بقلبها ينقبض.. طمأنها رامي أن الأمر لن يستغرق نصف ساعة.. ارتدى كل منهم دبلة في محاولة الحفاظ على ماء وجهها.. دخل بصحبتها إلى الممرضة رأسًا.. نقدها رامي ثمن العملية إلى جانب مبلغٍ محترم، كان كافيًا لتُعامل هبة باحترام وأدب بالغيين.. وترك لها رقم هاتفه.. تركهم رامي منتظرًا بالأسفل.. بينما الممرضة تبدي كامل اعتنائها بهبة..

بعد قرابة الساعة والنصف..خرجت هبة.. بدت شاحبة.. تتأبط ذراع الممرضه التي اتصلت برامي.. فاسرع يلتقطها من بين يديها.. أسندها بيديه.. ومرا في طريقهما على صيدلية اشترى لها ما كتبه الطبيب، عادت معه إلى المنزل.. ووجهها يزداد شحوبًا.

قضى رامي ليلته مستيقظًا.. متطلعًا إليها.. بعد يومين استعادت فيهما عافيتها، عادت إلى منزلها وإن لم تعد لها روحها أبدًا.. مرت بهما الأيام حتى أذاعت ليلى الشريط.

***

كانت ليلى تستمع إلى رامي بأعين خنقتها العبرات.. لم تتخيل في أسوأ كوابيسها أن تتسبب في ذلك الأذى لأحدهم.. الآن فقط أدركت سر تلك النظرة الحزينة في عينه.. الآن فقط فهمت مغزى كلمته التي ما فارقتها:

"يمكن يا ليلى تكوني بتتحاسبي عن حاجة مكنتيش تقصديها"

خرج صوتها خفيضًا وهي تنظر إليه من خلف دموعها التي انهمرت رغمًا عنها:

– بس انا مقصدش أأذيها..

هزَّ رأسه في أسى حقيقي:

– كان ممكن تخفي وشوش البنات، بس انتِ مهتمتيش، كل اللي همك السبق الصحفي.

ارتفع صوتها في حدة:

– انت بتحملني نتيجة غلطك، وراجع بالخطة العظيمة دي علشان تنتقم مني.. انت ازاي شيطان كده!!

متطلعة إليه بغير تصديق.. أهذا هو رامي؟ ذلك الذي شعرت في كنفه بالأمان و.. والحب!!

خفض رأسه مجيبًا:

- ليلى، يمكن ده كان غرضي فعلًا.. اني انتقم منك.. بس لما حبيتك..

قاطعته صارخة:

- اخرس.. ماتقولش حبيتك دي، متجيبش سيرة الحب على لسانك.

اقترب منها ممسكًا يدها محاولًا تهدئتها:

- يا ليلى..

قاطعته، مخلصة يدها من يده، متطلعة إليه بنظرة حملت كراهية الدنيا جميعها:

- اطلع بره.. مش عاوزة اشوفك تاني..

كان نحيبها يمزق فؤاده، أغمض عينه بقوة، عض على شفته حتى أدماها، واقترب منها ثانية:

- والله العظيم أنا بحبك، لما قُلتلك بحبك، كنت باقولها من قلبي بجد، كل كلمة خرجت مني ليكي، صادقة.

بدت هي كالتائهة، محدقة في الفراغ.. احتضنها ونحيبها يكويه، ومن بين دموعها عاتبته:

- ليه يا رامي، ليه.. ده انا قُلتلك مبقتش اثق في حد غيرك، تطلع زيهم كده!!
- ده كان في الأول.. بس لما قربت منك، حبيتك.. أنا آسف.
- كمل يا رامي.. عاوزة اعرف باقي الحكاية.

***

لم ينسَ رامي أبدًا أنه فقد هبة بسبب ليلى، لم يشفع لها أنها فقدت زوجها، فبرغم كل شيء مازالت "ليلى سالم" لن يهدأ له بال إلا إذا دمرها تمامًا، فليس لديه ما يخشاه، فأخته بالفعل غير موجودة هنا، ووالده زهد الدنيا بأكملها بعد وفاة أمه، جمع كل ما يستطيع عن ليلى، راقبها كثيرًا.. ترك عمله وتفرغ لها تمامًا، استطاع ذات مرة التسلل إلى منزلها.. لمح الفانيليا مستقرة في غرفتها.. قرأ مذكراتها.. احتفظ بقميص من دولابها.

لم يكن الأمر قد اكتمل في ذهنه.. لم يكن يدري كيف له التقرب منها والانتقام، حتي سمع بخبر عودتها ثانية، فإن كان استقال من عمله، إلا أن علاقاته لم تنتهِ.. بدأت الخطة تختمر في مخه.. سيوقعها في حبائله، سيجعلها تحبه، يفقدها الثقة في الجميع عداه، سيقترب حتى يستطيع أن يجد ما يدمرها به كلية، ولكن..

- صدقيني يا ليلى، ده كل الموضوع.
- وخالد كمان متفق معاك على كده؟

أطرق أرضًا دون رد، فكررت سؤالها فلم يجد مهربًا من الرد:

- خالد مش عايش، أنا كنت بحطلك أقراص هلوسة واحنا سوا، وكنت بعمل نفسي مشيت، وافضل موجود.

تطلعت إليه وتسلل الدمع ثانية من عينها، فمد يده ليمسحه، فأبعدتها بعنف، مضيفة:

- وازاي كنت بتبعت الهدايا يا رامي، ده في يوم رجعنا لقيناها سوا!!

أشاح بوجهه بعيدًا، الأمر يجرحه.. لا يريد تذكره أبدًا، تلك الخديعة التي حاكها عليها، وصدقتها هي، ثقتها به كانت تقتله، لوذها واحتمائها به، وبضعفها الأنثوي تسللت إليه.. وهو الذي أراد سحقها.. فسحقت هي قلبه ببساطة..

- رامي.. ممكن افهم بعد إذنك؟

أومأ برأسه مجيبًا:

- أول واحد، أنا اللي خبطت على الباب.. واحنا بنتكلم..

تنظر إليه مبهوتة، وهو يتابع:

- التاني، يوم ما مشينا سوا، انتِ طلعتي تلبسي، أخدته من شنطة عربيتي.. وركنته بعيد عن الباب.. ولما انتِ ركبتي العربية.. قلت لِك محفظتي وقعت.. رجعت بسرعة وحطيت البوكس على الباب ولما رجعنا لقيناه، أنا مشتريتوش، أنا أخدته من دولابك أصلًا..

فغرت فاها غير مصدقة، فأكمل وان اكتسى وجهه بحمرة خجل:

- دخلت بيتك مرة وانتِ مش موجودة، متستغربيش يا ليلى، فتح الباب مش صعب خالص، وكمان الزحمة والكافيهات اللي حواليكي سهلت الدنيا عليا أوي.

يصمت قليلًا.. يسحب نفسًا طويلًا ثم يزفره في تمهل متابعًا:

- أما الأخيرة، فدي كانت وأنتِ نايمة، يوم ما شوفتي خالد.. انتِ شوفتيني انا، كنت مخبي وشي شوية.. كنت عارف ان عقلك الباطن هيصورلك انه خالد.. سألت دكتور..

يومها لما دخلتي البلكونة تكلمي نور.. انا زودت جرعة الحبوب في النسكافيه.. ومعاها منوم كمان، جسمك كان متخدر تقريبًا، دي مش أول مرة.

تطلعت إليه بذهول.. كيف يجرؤ!! في حين تابع هو:

- المهم، دورت براحتي، لقيت النوتة، أخدتها وسبتها على الباب، وقطعت الوتر، وكسرت القوس، واللاب توب كان موجود قصادي، فتحته وعطلت الكاميرات منه، ودورت فيه لقيت الفيديو، انا معرفش لحد دلوقتي ايه السبب اللي خلاكي محتفظة بيه، وبعته لأشرف بعد كده..

كان يعض على شفتيه بقوة.. وكأننا نرمي بأوجعانا في منظقه مظلمة، وما أن ننبشها حتى نشعر بالوخز والألم ثانية، وهكذا رامي، شعر وكأن عملاق ينتزع روحه بيده، وكأنه يجثم على أنفاسه..

أما هي.. فكانت كتمثال من الشمع، حتى أن الدمع تجمد على وجهها، وإن كانت روحها تقطر دمًا.. مضى الوقت بهم ثقيلًا، يتجنب كليهما النظر للآخر في صمت قطعته هي:

- اطلع بره.

انبعث صوتها باردًا هادئًا.. تطلعت إليه دون أن ترمش.. فوجئ هو برد فعلها:

- ليلى، أنا..

صرخت به:

- بره.

نهض من مكانه في اتجاه الباب.. وقبيل النهاية التفت إليها:

- قبل ما امشي هاقولك حاجة.. مش مهم تصدقي أو لا، أنا هاحاول امنع الفيديو ده، واعرفي حاجة أخيرة، أنا حبيتك بجد، واللي بينًا مش كذب.. يمكن دي الحقيقة الوحيدة في حياتي.
- بره يا رامي.

***

انتفض جسدها في عنف مع صوت إغلاق الباب.. جلست تتطلع صامتة إلى مكان كان رامي يحتله منذ قليل.. انساب الدمع حارًّا من عينها بلا توقف.. نزعت السلسلة من رقبتها في عنف، وتطلعت إليها للمرة الأخيرة قبل أن تقذف بها بعيدًا، ظلت في مكانها بلا حراك، نحيبها لا يتوقف، مرق شريط حياتها أمامها مسرعًا، أكل هذا هراء؟

خالد وحياتها معه سنوات.. وهمًا!!

عملها ومجهودها وتعبها.. سراب!

رامي.. ذلك الذي ظنت أنه تعويض عن كل ما مرت به.. خدعة!!

حتي نور.. ما كل هذا الزيف؟ لا حقيقة في حياتها إذن.. أتستحق الزيف؟ أتستحق العناء؟

بكت وصرخت.. هشمت ومزقت.. حتي أفرغت كل انفعالاتها، فالتقطت أنفاسها.. ومسحت دموعها.. وقفت تتطلع إلى نفسها في المرآة.. بدت كالعنقاء.. بُعِثَت من الرماد ثانية.. لن تنكسر.. وضعت رأسها تحت الماء البارد.. وفي داخلها ترتسم خطة انتقامها.

***

لم يصدق رامي عينيه وهو يقرأ اسم ليلى على شاشة هاتفه، توقع أنه خسرها إلى الأبد، أيعقل أنها سامحته بتلك السرعة؟ لم يتجاوز تفكيره الثواني، إذ سبقته يداه وكأنها تخلصت من سيطرته عليها، ومدفوعًا برغبه ملحة لمصالحتها، ضغط زر الإجابة، فتجاوز صوتها أذنيه إلى قلبه:

– رامي، ممكن تعدي عليا لو سمحت؟

لم يستوعب الأمر، أهو يهزي، أم يحلم، طلب منها أن تعيد ما طلبته على أسماعه ثانيةً، فتحول صوتها إلى الحدة:

– فيه إيه يا رامي.. مش عاوز؟

– لا لا.. مش عاوز إيه بس.. ثواني وجايلك.

أدار مقود السيارة في عنف، فأصدرت إطاراتها صريرًا مزعجًا وكأنها تعلن اعتراضها على جنونه، وارتفعت الأصوات من حوله حاملة اللعنات إلى أذنيه،

غير أنه لم يكترث، فقد كان نداؤها هو الأهم، هو ما يستحوذ عليه الآن، ولكن.. لماذا؟ ابتسم عندما تخيل أنها ستقتله انتقامًا أو ما شابه..

وصل إليها، فتحت له الباب بوجهٍ وكأنه ما ذاق الألم قط، كانت مبتسمة، في كامل زينتها، أشفق عليها، يعلم كم يتطلبه الأمر من ثبات وتظاهر بالسعادة أو الجمود، فهو قد اختبر هذا الأمر كثيرًا.. دخل بصحبتها وهو يتخيل كيف ستقتله.. ابتسم ثانية فتطلعت إليه في استنكار.. فبتر ابتسامته وجلس قبالتها.

شرحت له ما تريد.. فاتسعت عيناه في ذهول غير مصدق ذلك المطلب الجنوني تمامًا.

***

بعد أيام.. كان ثلاثتهم متطلعٌ إلى الشاشة بلا حراك.. وكأن على رؤوسهم الطير، فمنذ التنويه الذي أذاعته هي بنفسها صباحًا، وأشرف يكاد يجن.. أي أمر ستعلنه تلك الحمقاء.. ألم تكتفِ بعد!!

أما نور فبدت كمن أصابها مسٌّ من الجنون.. تعلن كراهيتها وحقدها لليلي بلا داع.. ولا سبب، وكان بصحبتهم كريم، والفضول يقتله هو الآخر.. لحظات وظهرت هي أمامهم.. بابتسامة صافية، لم يبدُ عليها أي أثر للانكسار، فقد

كانت ليلى أمامه متأنقة، ربما أكثر من المعتاد.. كأنه يراها للمرة الاولى هكذا، عروس في ليلةِ العرس.. اتسعت ابتسامتها:

- مساء الخير.. أنا عارفة اللي انا هاقوله دلوقتي ممكن يقضي على مستقبلي تمامًا.. بس أنا حابَّة أقوله..

كل إنسان بيغلط، وغلط عن غلط يفرق، بس فيه اللي بيغلط وهو عارف انه غلطه ده هيؤذي ناس مالهاش ذنب، وفيه اللي مايقصدش يؤذي حد، بس أذى نفسه، أنا منهم.. غلطت وأذيت نفسي بدون ما اقصد، ولأني عارفة اني معملتش حاجة، أو ماكُنتش قاصدة فعلًا.. فانا هاقول كل حاجة، وهسيب القرار والحكم ليكوا..

كان أشرف يسمع ليلى، وهو غير مستوعب، تلك اللعينة تقضي على نفسها بيدها، لم تكترث بتهديده أو ما ارسله إليها، توقع أن تثور، ترتجف، أن تأتي إليه طالبة للرحمة، رسم سيناريوهات عدة، عندما أخبرته نور بشأن الهدايا. قرر الإتيان على أعصابها أولًا.. قرر التلاعب بها.. قبل الإجهاز عليها تمامًا، ولكنها فاجأته، تخبر هي الجميع بالأمر الآن، بل وتذيع هي الفيديو، ولكن بعد أن أخفت وجوه الفتيات..

- أنا غلطت، مش بعفي نفسي من الغلط، أو المسئولية، بس كان غلط غير مقصود، لكن انا اتهددت بالفيديو ده، لما هاجمت الأسبوع اللي فات بعض الناس..

كاد أشرف أن يجن مع تلك الجملة.. توجه إليه ضربة قاضية على الهواء مباشرة..

- ولأني مدركة إن انا قوتي الأولى والأخيرة بيكوا انتوا، فانا جازفت، وطلعت وقُلت كل حاجة، انا كنت طول الوقت صوتكوا، كنت في ضهركوا، ولأني انحزت ليكوا ضد بعض الناس، بيهددوني دلوقتي بالفضيحة، بس يا.. أكيد انت بتتفرج عليا دلوقتي، مش ليلى سالم اللي تتهدد.. ولو دي آخر حلقة ليا، انا عيني مش مكسورة، وغلطي انا اللي باذيعه علنيًا بنفسي ومعترفة بيه، والأمر ليكوا، ولو مطلعتش تاني، أو جرالي حاجة، يكفيني اني قصاد نفسي.. حاسة بالاحترام.

ألقى أشرف بتمثال صغير أمامه، فاصطدم بشاشة التليفزيون، يدوي كالقنبلة، ولكنه كان لا يضاهي ضجيج قلبه وانفعالاته.. فقد خسر معركته بجدراة.

****

- تفتكر هتسامحني يا بابا؟

بشرود تساءل رامي.. فقد مرَّ قرابة الشهر وليلى مختفية عن الأنظار عقب تلك الحلقة.. حاول الوصول إليها بلا جدوى.. لا أحد يعلم حقًا أين هي الآن، داعب والده العصافير التي أخذ صوتها يعلو قليلًا، فجذبت انتباه رامي.. أدرك الآن لمَ يفضِّل والده صحبتها.. لا تحيا إلا أزواجًا.. هي رمزٌ للوفاء في زمن عز فيه الوفاء..

- مجربتش تكلمها تاني؟

هزَّ رامي رأسه بلا معنى:

- كتير أوي بس مبتردش.. ومش عارف هي فين، برنامجها اتوقف ومتحولة للتحقيق، انا عاوز اكون جنبها.

- خلاص يا رامي، دور عليها تاني.

تطلع إليه رامي بتساؤل فأكمل والده:

- مش هتسامح بسهولة، ومش هتنسى، بس لو بتحبها خليك وراها.. الحب معافرة يا رامي، مش كلمتين.. الحب بجد بيظهر وقت الشدة، وقت الأزمة، وأعتقد هي دلوقتي مستنياك تدور عليها وتقف معاها.. مش قاعد بتتفرج على العصافير، اتعب علشان توصلها، لأنك غلطان.. لازم تتعب.

تنهد رامي بأسى حقيقي:

- بس لو اعرف اوصلها.
- افتكر يا رامي.. أكيد في كلامكوا هي قالت لك بتكون فين.. الحب يا ابني في التفاصيل الصغيرة أوي دي.

ابتسم رامي بلا رد.. وجلس صامتًا لا يفعل شيئًا غير إعادة قراءة رسائلهم القديمة وسماع رسائلها الصوتية، توقف عند أحدهم وأعادها مرارًا..

- "عارف يا رامي.. أنا بحب دهب أوي، لما بتخنق أوي وبوصل لمرحلة اني مش قادرة افكر؛ باختفي هناك شوية.. وعمري ما قلت لحد، بس باقولك انت.."

نهض من مكانه ملتقطًا مفاتيح سيارته، فتساءل والده، فالتفت إليه بابتسامة:

- عندك حق يا بابا.. الحب دايمًا في التفاصيل الصغيرة.

تمت

7/4/2019

دينا السقا